

الشعر الأندلسي :

حدوده وأبعاده كمصدر للتاريخ

د. جمعة شيخة

أستاذ بالجامعة التونسية

قسّم جلّ مؤرخي الأندلس من العرب والأجانب - إن لم نقل كلهم - تاريخ العرب بالأندلس إلى مراحل تقليدية أصبحت معروفة لدى أغلب الباحثين، فهناك الفتح العربي للمغرب ويبدؤون فيه بفتح إفريقية ويختمون بفتح الأندلس باعتبار أن فتح شبه الجزيرة الأيبيرية هو نتويع لفتح إفريقية والمغرب بصفة عامة.

وهكذا ما إن استقر الفاتحون الأولون في الجنوب الغربي من أرض القارة العجوز بعد تغلبهم على دولة القوط ودخولهم عاصمتها طليطلة، حتى بدأ عهد دولة الاسلام بالأندلس حسب تعبير شيخ مؤرخي الأندلس من العرب الأستاذ محمد عبد الله عنان.

ولقد قام المؤرخون من العرب والأجانب بتحديد مراحل دولة الاسلام بالأندلس منذ الفتح إلى سقوط غرناطة أي من نهاية القرن 1 هـ/ 7 م إلى نهاية القرن 9 هـ/ 15 م. وكان هذا التحديد من التشابه ما يجعل عسيرا أن تجد ما يميّز مصدرا عن آخر إذا استثنينا التفصيل والتفرع في هذا المصدر والاقتصار والايجاز في آخر، فجّلهم تقريبا يعتبرون أن دولة الاسلام بالأندلس مرّت بالمراحل الأساسية التالية :

- 1) المرحلة الأولى : هي مرحلة الفتح وعهد الولاة ما بين القرن 7/1 والقرن 8/2.
- 2) المرحلة الثانية : هي فترة الامارة الأموية بقرطبة من القرن 8/2 إلى بداية ق 10/4. وتنقلب هذه الامارة إلى خلافة مع عبد الرحمان الناصر. وتستمرّ الخلافة الأموية طيلة القرن 10/4 وستعيش الأندلس معها عصرها الذهبي مدة حوالي قرن من الزمن.
- 3) المرحلة الثالثة : تبدأ بسقوط الخلافة الأموية في بداية القرن 11/5. وتنقسم البلاد إلى دويلات صغيرة أصبحت تعرف بدول الطوائف. وسيستمرّ الوضع السياسي مع هذه الدول الضعيفة والمتناحرة طيلة القرن 11/5.

(4) المرحلة الرابعة : هي فترة الحكم المرابطي للأندلس من نهاية القرن 11/5 إلى بداية القرن 12/6. فقد استنجد بهم ملوك الطوائف عندما تفاقم الخطر النصراني من الشمال وعجزوا عن مواجهته. فدخل المرابطون الأندلس أول الأمر منجدين ثم دخلوها ثانية غازين لها وفاتحين.

(5) المرحلة الخامسة : هي فترة الحكم الموحيدي فقد استطاعت دعوة المهدي بن تومرت أن تؤسس دولة قوية حَلَّت محلَّ المرابطين، وحَدَّت المغرب لأول مرة في تاريخ هذه المنطقة. كما أسرعت بإنجاد الأندلس وضمها إلى الامبراطورية الموحدية واستمرَّ حكمهم لها من حوالي منتصف القرن 12/6 إلى منتصف القرن 13/7.

(6) المرحلة السادسة : وهي المرحلة الأخيرة من تاريخ العرب بإسبانيا. فقد تمكَّن النصارى بعد انهيار دولة الموحيدين من استرجاع كامل بلاد الأندلس خلال النصف الأول من القرن 13/7. ولم يبق للعرب إلا منطقة صغيرة في أقصى الجنوب الشرقي لشبه الجزيرة الأيبيرية قامت فيها دولة صغيرة الحكم قوية العزم. هي دولة بني الأحمر أو الدولة النصرية، وستقاوم هذه الدولة الزحف القشتالي من الوسط والأراغوني من الشمال إلى أن تسقط عاصمتها غرناطة سنة 1492/897، ويكون بذلك قد مرَّ - في هذه السنة - على أفول دولة الاسلام بالأندلس خمسة قرون.

هذه هي المراحل التقليدية التي نجدها في جل كتب التاريخ الأندلسي. ومرَدَّ هذا التشابه في التقسيم هو اعتماد المؤرخين على مصادر تكاد تكون مضبوطة ضبطاً نهائياً. فنادراً ما نجد محاولة لاثراء هذه المصادر بمصدر جديد قد يكشف أو يوضِّح أو يدقِّق لنا جوانب من هذا التاريخ الذي شغل الناس ومازال يشغلهم إلى اليوم : بعبره وحكمه بمسراته وأحزانه، بجده وهزله.

وقد آن الأوان أن نعيد ولو بصفة جزئية ومحتشمة النظر في هذا التقسيم لمراحل تاريخ دولة الاسلام بالأندلس. كما آن الأوان أن نقَدِّم مصدراً جديداً للتاريخ رفضه بعضهم وأقرَّه آخرون : هذا المصدر هو الشعر الأندلسي بكل ما فيه من تنوع وغزارة، وخاصة بما يُكتشف منه من جديد على صعيد الدراسات الأندلسية المعاصرة.

ليس غريباً أن نفاجئ الباحثين عندما ندَّعي أننا سنورِّخ بالاعتماد على الشعر، أي سنورِّخ بالاعتماد على مادة أثرية زئبقية، من الصعب أن تبوح بأسرارها بسهولة من جهة، ومن العسير أن يكون لها نفس التأثير وردَّ الفعل من مجموع المتلقين والممارسين لها من جهة ثانية.

لكن مما يهون الأمر نسبياً أن ليس كل الشعر شعراً فيصعب فهمه وتتعدد تأثيراته. فهناك من الشعر ما هو أقرب إلى النظم. والشعر العربي - إلا ما قلَّ ونذر - هو من هذا الصنف الثاني.

ومع ذلك قد يتساءل بعضهم لماذا الالتجاء إلى هذه المادة الشعرية بصنفها للتاريخ،
والحال أن هناك مصادر أخرى تقليدية مهيأة أكثر لهذا الغرض بالذات ؟

إن هذا السؤال لئن بدا شرعيا من الناحية المنهجية، فهو يفترض أن كل الأحداث
الماضية نجد لها صدق في المادة التاريخية، والحال أن هناك كثيرا من الثغرات في تاريخ
الشعوب والأمم قديما وحديثا، استحالة سدّها.

زيادة على ذلك - وإذا حصرنا أنفسنا في الماضي الأندلسي - فإننا نلاحظ أن مؤرخي
شبه الجزيرة الأيبيرية من العرب والأجانب قد انتهوا - اعتمادا على ما لديهم من مصادر
- أو يكادون من ضبط تاريخ الوجود العربي الاسلامي بالأندلس. فكان من المفروض لسد
بعض الثغرات في هذا التاريخ من التفتيش عن مصادر أخرى. فكانت المادة الشعرية - أي
ديوان الشعر الأندلسي - مهيأة للقيام بهذا الدور على الأقل لثلاثة أسباب :

(1) أن الناظر في النص الأدبي عموما والنص الشعري بصفة خاصة يمكن له أن ينظر
فيه من زاويتين : فإن كان مؤرخا للأدب أو دارسا للتفكير فيه كان هدفه منه القيمة
الوثائقية، وإن كان ناقدا أو أسلوبيا كانت غايته منه القيمة الجمالية فيه.

(2) إن الحدث التاريخي له جوانب مادية وأخرى نفسية وهذا الجانب النفسي هو المهيأ لأن
تصوره المادة الشعرية لأن الشاعر - بصفة عامة - ينظر إلى الحدث بقلبه ووجدانه
ويغوص في جزئياته فيوميء إلى أبعاده النفسية والاجتماعية. وهذه الأشياء قد تنعدم
من الوثائق التقليدية التاريخية، لأنها تعبير عن وجدان الشعوب، ولا يمكن إلا للغة
الوجدان أن تنقلها وتحافظ على ما في طياتها من شحنات عاطفية.

(3) إن الشعر الأندلسي هو في نهاية الأمر، وفي جلّ فترات الوجود العربي الاسلامي،
تعبير عن صراع مرير في ظروف عصيبة، عاشها أهل الأندلس، وفي اعتقادنا أنه
لا أبلغ ولا أصدق في تصوير أعماق النفس البشرية وآلامها في الظروف العصبية من
أنه مكلم وصرخة مظلوم على لسان شاعر مرهف الشعور ليس بعيدا أن يكون هو
نفسه قد اكتوى بنيران الأحداث ولهيبها.

ومن حسن حظنا أن المادة الشعرية متوفرة⁽¹⁾ والنصوص تكتشف⁽²⁾ من حين لآخر
لنتري رصيدنا من الشعر الأندلسي، وسنحاول أن نقدم من هذا الشعر بعض النماذج للبرهنة
على ما ذهبنا إليه من وجود قيمة وثائقية في المادة الشعرية.

(I) فمن حيث التقسيم - واعتمادا على هذا المصدر الجديد وهو الشعر - أن الأوان
لمراجعته باعتبار أنه لا يعكس الحقيقة التاريخية من كل جوانبها : فهو يبرز بالدرجة الأولى
نوع الحكم القائم بالأندلس ثم يبرز ثانية - وبشكل لا يخلو من تهويل - الصراع الخارجي

بين المسلمين والنصارى. بينما لا يبرز بالقدر الكافي صراعا آخر داخليا بين العناصر الأربعة المتكون منها المجتمع الأندلسي : وهي العنصر القوطي والعنصر العربي والعنصر البربري والعنصر الصقلي.

ويبدو أن المادة الشعرية قد تفيدنا من هذا الجانب فهي تبرز صراعا هادئا تارة وعنيفا أخرى بين هذه العناصر. وكان هذا الصراع في نهاية الأمر هو الذي حدّد وجود دولة الاسلام بالأندلس ومستقبلها. وقبل أن نقدّم أمثلة على ذلك نقترح التقسيم التالي لمراحل حياة الدولة العربية الاسلامية بالأندلس بالنظر إلى العنصر الذي كانت بيده مقاليد الحكم.

1 - الفترة الأولى :

ونسُميها بالفترة العربية لأن الحكم خلالها كان في جل مظاهره بيد العنصر العربي. وتمتدّ هذه الفترة على أربعة قرون من القرن 7/1 إلى القرن 11/5، وتبتدئ بحدث عظيم الأهمية ويتمثل في فتح العرب لشمال أفريقيا في وسط القرن 7/1. وتأسست القيروان سنة 670/50 على يد الفاتح الكبير عقبة بن نافع. أما الأندلس فقد وصلها الفتح الاسلامي في أواخر القرن 7/1. وكان ذلك في ظل الخلافة الأموية بدمشق (660/40 - 710/92) وحكم الأندلس بعد فتحها سنة 710/92 إلى سنة 755/138 اثنتان وعشرون واليا أولهم موسى بن نصير الذي اكتمل فتح الجزيرة على يديه سنة 712/94 وأشهرهم عبد الرحمان بن عبد الله الغافقي الذي وصل الجيش العربي الفاتح معه إلى أقصى نقطة في أوروبا. فقد خسر هذا القائد معركة بلاط الشهداء (بواتيه) ضد شارل مارتل وقتل سنة 732/114. وآخر الولاة هو يوسف بن عبد الرحمان الفهري الذي افتكّ منه السلطة الأمير عبد الرحمان بن معاوية (الملقب بالداخل، والأول، وصقر قریش) سنة 755/138.

لقد استطاع هذا الأمير الشاب بعد سقوط خلافتهم بدمشق على يد العبّاسيين أن يفرّ إلى المغرب ويؤسس إمارة أموية بالأندلس عاصمتها إشبيلية لمدة محدودة ثم قرطبة بصفة نهائية.

قامت هذه الامارة سنة 755/138 وحكمها ثمانية أمراء : أولهم مؤسس الدولة عبد الرحمان الأول وآخرهم عبد الرحمان الأول وآخرهم عبد الرحمان الثالث. وقد واجه هذا الأمير الشاب - بعد أن ورث الحكم عن جده الأمير عبد الله - خطرا داخليا وآخر خارجيا :

أما الخطر الداخلي فتمثّل في فتنة شعواء عمّت أرجاء البلاد، وكان للمستعمرين الأندلسيين من النصارى دورهم في تأجيج نارها والعمل على استمرارها وانتشارها. واستطاع بعزمه الثابت أن يعيد توحيد البلاد ويقضي على هذه الفتنة وعلى زعيمها ابن حفصون. أما الخطر الخارجي فتمثّل في بروز عنصر جديد على الركح السياسي بالعدوة الافريقية وخاصة افريقية (المغرب الأدنى أي تونس). هذا العنصر الجديد هو العنصر الشيعي. فقد استطاع العبيديون - نسبة إلى مؤسس الدولة عبيد الله المهدي - القضاء على

الدولة الأغلبية سنة 909/297 و الحلول محلها، وإعلان خلافة شيعية بالمغرب تناوئ
الخلافة العبّاسية السنية بالمشرق. وهكذا وجد - ولأول مرة في تاريخ الاسلام - خلافتان
في نفس الوقت : إحداهما بالمشرق وعاصمتها بغداد والثانية بالمغرب وعاصمتها القيروان.

ولم يكن طمع العبيديين الشيعة في المشرق ورغبتهم في الاستيلاء على عتباته المقدّسة
ليلهيهم عن محاولة تركيز نفوذهم في المغرب على أسس ثابتة وصحيحة. فهم كانوا يطمحون
إلى توحيد العالم الاسلامي كلّهِ والعربي منه خاصة تحت لواء ايدولوجية واحدة هي
الايدولوجية الشيعية. ولا شك أن الامارة الأموية السنية في قرطبة تمثل في نظرهم عائقا
خطرا لهم في محاولة تحقيق هذا الحلم الكبير.

ومن جهة أخرى تبين لعبد الرحمان الثالث بقرطبة أن خطر الشيعة ليس موجّها فقط
نحو المشرق العربي، بل هو موجّه وفي مرحلة أولى ومتأكّدة نحو المغرب الأقصى
والأندلس. فعمل جاهدا - بعد توحيد البلاد والقضاء على الفتنة الداخلية - على تركيز نفوذه
بالمغرب الأقصى باعتباره امتدادا حيويا لنفوذه بالأندلس. وانقسم سكان المغرب من البربر
إلى مؤيد للعبيديين، وهم قبائل صنهاجة ومؤيد للأمويين وهم قبائل زناتة.

ولم يكتف عبد الرحمان الثالث بذلك بل أعلن انقلاب الامارة الأموية بقرطبة إلى خلافة
سنة 929/317. وتلقّب بلقب خلافي هو الناصر حتى يقف موقف النذّ للنذّ للخليفة المهدي
بالقيروان، خاصة بعد أن تحول الصراع المذهبي الايدولوجي بين قرطبة والقيروان إلى
صراع عسكري على سواحل البلدين. وهكذا يصبح في العالم الاسلامي لأول مرة سنة
929/317 ثلاثة خلفاء يدّعي كلّ واحد منهم أنه الخليفة الشرعي.

وستعيش الأندلس في ظلّ الخلافة الأموية الجديدة وخاصة في عهدي الناصر وابنه
الحكم المستنصر ثمّ مع الحاجب القوي المنصور بن أبي عامر عصرها الذهبي طيلة القرن
10/4.

ولئن استطاع هذا الحاجب بحنكته أن يوفّق بين الانفراد بالحكم والابقاء على منصب
الخلافة في شخص الخليفة الضعيف هشام المؤيد، فإن ابنه الثاني الملقّب احتقارا بشنجل
(تصغير شانجة) أراد أن يجمع في شخصه الخلافة والحجابه، فكان ذلك السبب الرئيسي
في اندلاع الفتنة الكبرى بقرطبة. وستعيش الأندلس حربا أهلية طاحنة حوالي ربع قرن من
الزمن انقسم فيها المجتمع الأندلسي إلى فريقين متناحرين هما الحزب الأندلسي والحزب
البربري. وقد انتهت هذه الفتنة بسقوط الخلافة الأموية سنة 1030/422. وتفكّكت وحدة
البلاد، وتمكّن النصارى ولأول مرة منذ عهود طويلة من الاستحواذ على مناطق من أرض
الاسلام في الشمال مقابل ما كانوا يسدونه من خدمات عسكرية لهذا الفريق أو ذاك.

ولا شك أن حرمان البربر من السلطة كان السبب الأوضح الأعماق في اندلاع الفتنة وسقوط الخلافة رمز الحكم العربي بالأندلس، وبسقوطها فسحت المجال لهذا العنصر وللعنصر الصقلي من الاستقلال بالسلطة العليا ولو كان ذلك في مناطق محدودة وصغيرة من بلاد الأندلس.

وبهذا التحول في أعلى هرم السلطة دخلت البلاد بداية من القرن 11/5 في عهد ما أصبح معروفا ومشهورا بعهد الطوائف : لقد قامت على أنقاض الخلافة الأموية مجموعة من الدول اتخذت من المدن الكبرى الأندلسية عواصم لها. واستقلّ بالحكم بها قضاة سابقون أو ولاية جهويون أو قادة عسكريون في عهد الدولة الأموية المنهارة.

وهكذا ستعيش الأندلس فترة تتخاضع فيها عناصر متعددة على الحكم : وهي العنصر العربي - وكان الأقوى - والعنصر البربري والعنصر الصقلي. ولم يكن من الممكن أن تتحدد هذه العناصر لمواجهة العدو المشترك وهو النصارى، نظرا إلى أن العنصرين الثاني والثالث أصبحا رافضين رفضا مطلقا أن يلعبا الدور الثاني في هرم السلطة بالأندلس، ولم يعد العنصر الأول قادرا لاختضاع هذين العنصرين لنفوذه وسيطرته بالقوة. وبذلك يمكن لنا أن نفترض أن عهد ملوك الطوائف هو العهد الذي تهيأت فيه الأندلس للخروج من حكم العنصر العربي إلى حكم عنصر آخر هو العنصر البربري.

2 - الفترة الثانية :

ونسُميها بالفترة البربرية لأن الحكم خلالها كان بيد العنصر البربري المرابطي أولا ثم البربري الموحدّي ثانيا.

لقد آلت السياسة الانتحارية التي اتبعتها ملوك الطوائف إلى تفاقم الخطر النصراني في الشمال، خاصة بعد سقوط طليطلة عاصمة النّغر الأوسط بيد ألفونس السادس ملك قشتالة 1085/478. وانتبه هؤلاء الملوك من غفوتهم ولهوهم وتناحرهم فيما بينهم بعد أن بدا جليا واضحا ولجميعهم أن هذا الملك القشتالي مقرّ العزم على القضاء عليهم واحدا واحدا. فكان أن استقرّ رأيهم وأجمعوا - ولو ظاهرا - على الاستنجد بالمرابطين في العدو الافريقية. ولخص المعتمد بن عباد ملك اشبيلية هذا الاتجاه السياسي لملوك الطوائف بقولته المشهورة : رعي الجمال ببوادي المغرب أفضل من رعي الخنازير في سهول قشتالة.

والمرابطون هم بربر من صنهاجة تمكّنوا بزعامة يوسف بن تاشفين من إقامة دولتهم بمراكش (1056/448 - 1145/540). وكانوا عندما استنجد بهم الأندلسيون يتقدون حماسا للجهاد.

قام المرابطون بإنجاد ملوك الطوائف ضد الخطر النصراني وانتصروا في معركة الزلاقة المشهورة قرب بطليوس بالبرتغال سنة 1085/478، وكسروا شوكة ألفونسو السادس رغم ما أعدّه من جيوش من داخل قشتالة وخارجها.

وما أن ضعف الخطر النصراني نسبيا حتى عاد ملوك الطوائف إلى سالف عهدهم من التنافس والتناحر. وبدأ النصارى يستعّون ليلعبوا نفس الدور الذي لعبوه قبل معركة الزلاقة. فجاء القرار المرابطي بضم الأندلس إلى دولتهم وخلع ملوك الطوائف عن عروشهم. وهكذا تنعكس الآفة فقد كان المغرب الأقصى في القرن 10/4 ولاية أموية تابعة لقرطبة، فأصبحت الأندلس في القرن 11/5 ولاية مرابطية تابعة لمراكش. وتضعف الدولة المرابطية بتضافر عدة عوامل : من أهمها ظهور الدعوة الموحدية على يد المهدي بن تومرت وقيام الثورة ضدهم بالأندلس. فأهلها - أهل الأندلس - لئن اعتبروا المرابطي أخا منقادا لهم من العدو النصراني في غمرة الانتصارات، فقد أصبح في نظرهم غازيا ثقيلًا عندما استقرّ ببلادهم ومسك بمقاليد الحكم بها دون بقية العناصر.

وتبقى الأندلس بعد سقوط الدولة المرابطية وقيام الدولة الموحدية ولاية تابعة للعدوة الافريقية؛ أي خاضعة لحكم العنصر البربري. ويقوم عبد المؤمن بن علي بعد أن وُحِدَ العدوة الافريقية من سلا إلى المهدية بنجدة الأندلس ثانية من برائن التكالب النصراني عليها. وخاض الموحدون من أجل ذلك معركتين كبيرتين الأولى : معركة الأرك في سنة 1125/591 بقيادة الخليفة أبي يوسف يعقوب المنصور. وقد تمكّن الجيش الموحي من سحق الجيش النصراني، وأوقف إلى حين التكالب النصراني على أرض الاسلام بالأندلس.

الثانية : معركة العقاب وانهزم فيها الموحدون بقيادة الناصر الموحي سنة 1212/609، وكاد المغرب والأندلس أن ينضبا بشريا بعد هذه المعركة لكثرة ما قتل من الشباب الافريقي والأندلسي.

وتضعف الدولة الموحدية سياسيا بعد هذه المعركة، وتترك شبه فراغ عسكري في الأندلس. فيغتنم النصارى الفرصة ويستولون خلال النصف الأول من القرن 13/7 على أهم القواعد الأندلسية الكبرى كبلنسية وقرطبة واشبيلية. وبذلك تسقط كل الأندلس تقريبا، ولا يبقى في يد المسلمين إلا منطقة صغيرة في الجنوب الغربي من شبه الجزيرة الايبيرية.

3 - الفترة الثالثة :

ونسميها بالفترة الأندلسية لأن الحكم فيها أصبح بيد عناصر انصهرت منذ عهد طويل وأصبحت السمة الأندلسية هي المميّزة لهم باختلاف عناصرهم :

لقد قامت في هذه المنطقة الصغيرة الحجم دولة هي دولة بني نصر أو بني الأحمر. وكان ذلك سنة 1231/629. واتخذت من مدينة غرناطة عاصمة لها. وسنظل هذه الدولة تقاوم التكالب النصراني عليها طيلة حوالي قرنين ونصف. استمات المسلمون خلالها في الدفاع عن وجودهم. ويقلّ استغرابنا لطول مدة المقاومة إذا ما علمنا أن هذه الدولة قد ضمت في جيشها نخبة الفروسية الأندلسية واستعانّت في بعض الفترات بنخبة الفروسية الافريقية ضد الخطر النصراني.

وكانت النهاية المحتومة على يد الملكين الكاتولكيين فرديناند واليزابات بعد توحد أراغون وقشتالة في دولة واحدة، فقد استطاع هذان الملكان الاستيلاء على غرناطة عاصمة بني الأحمر في سنة 1492/897، وبذلك انسدل الستار على دولة الاسلام بالأندلس، وسوف لن تنتهي مسرحية هذا الوجود بسقوط غرناطة بل سيبدأ فصل مشج وهو تاريخ البقية الباقية من الأمة الأندلسية وهم الذين يعرفون بالمورسكيين.

ولتدعيم هذا التقسيم يمكن أن تقدم بعض الأمثلة : لابرار هذا الصراع العنصري بشبه الجزيرة الايبيرية وأدى إلى سيطرة هذا العنصر أو ذاك على السلطة.

(1) الصراع بين العرب من جهة والمستعربين والمولدين من جهة أخرى : جرى هذا الصراع في أواخر فترة الامارة وبداية عهد الخلافة بالأندلس. وكان ابن حفصون زعيم العجم من المولدين والمستعربين أبرز ثائر على الأمويين والحكم العربي الذي يمثلونه. « وقد دامت فتنته هو وأبناؤه اثنتين وخمسين سنة وكان يتحصن بمدينة ببشتر... وخرجت جيوش قرطبة لاختصاصه مرات عديدة. ولم يتمكن الأمويون من القضاء عليه إلا زمن عبد الرحمان الناصر » (3).

وجسدت المادة الشعرية هذا الصراع بقصائد فخرية أو رثائية أو هجائية من هذا الطرف أو ذاك. فقد كان لكل فريق شاعر ينوه ببطولاته أو يحقر من خصومه بطريقة تذكرنا بشعر النقائض الذي برز في المشرق العربي عندما احتدم الصراع السياسي بين الفرق والأحزاب :

فمن الجانب العربي نجد القائد سوارا بن حمدون القيسي. وكان معه في حروبه ضد ابن حفصون شاعر العرب سعيد بن جودي. وقد نوه هذا الشاعر بانتصار قومه على المولدين في وقعة المدينة وسخر من العنصر الأعجمي ومدح زعيم العرب سوارا. فقال (الطويل) (4) :

يَقُولُ بَنُو الْحَمْرَاءِ (5) لَوْ أَنَّ جَنَاحَنَا
وَصِيقَتُمْ بِهِ دَرْعًا وَجَاشَتْ تُفُوسُكُمْ
يَطِيرُ لَعَشَاكُم بِشُؤْبُوبٍ وَأَبِلِ
وَمَا مَنَعَتْكُمْ مَانِعَاتُ الْمَعَاوِلِ

وَلَمَّا رَأَوْنَا زَاجِفِينَ إِلَيْهِمْ
فَصِرْنَا إِلَيْهِمْ وَالرِّمَاحُ تَنُوشُهُمْ
تَوَلَّوْا سِرَاعًا خَوْفَ وَقَعِ الْمَنَاصِلِ
كَوَقَعِ الصَّيَاصِي تَحْتَ وَهَجِ الْقَسَاطِلِ
قَلَمَ يَبْقُ مِنْهُمْ غَيْرُ عَانٍ مُصَفَّدٍ
يَقُودُ أَسِيرًا مُوثَقًا، فِي السَّلَاسِلِ

لَقَدْ سَلَ سَوَارٌ عَلَيْكُمْ مُهَنَّدًا
بِهِ قَتَلَ اللَّهُ الَّذِينَ تَحَرَّبُوا
سَمَّا لِبَنِي الْحَمْرَاءِ إِذْ حَانَ حَتْفُهُمْ
أُذْرْتُمْ رَحَى حَرْبٍ فَدَارَتْ عَلَيْكُمْ
يَجْزُ بِهِ الْهَامَاتِ جَزَّ الْمَفَاصِلِ
عَلَيْنَا وَكَأَنَّا أَهْلُ إِفْكٍ وَبَاطِلِ
بِجَمْعِ كَمَثَلِ الطُّودِ أَوْ عَنْ زَافِلِ
بَحْتَفٍ قَدْ أَفْنَاكُمْ بِهِ اللَّهُ عَاجِلِ

وقال سعيد بن جودي في قصيدة أخرى يمدح سوار لأخذه بثار يحيى بن صقاله أحد أمراء العرب (الخفيف)(6) :

قَدْ طَلَبْنَا بِثَارِنَا فَقَتَلْنَا مَنكُم كُلِّ مَارِقٍ وَعَنِيدٍ
قَدْ قَتَلْنَاكُمْ بِيَحْيَى وَمَا أَنْ كَانَ حَكْمُ الْإِلَهِ بِالْمَرْزُودِ
جَاءَكُمْ مَا جِدَّ يَقُودُ إِلَيْكُمْ فَنِيَّةٌ مِنْهُمْ كَمَثَلِ الْأَسُودِ
هَزْبِرِي مُهَدَّبٌ مِنْ نَزَارٍ وَعَمِيدٌ مَا مِثْلُهُ مِنْ عَمِيدِ
يَطْلُبُ الثَّارَ ثَارَ قَوْمٍ كَرَامٍ أَخَذُوا بِالْعُهُودِ بَعْدَ الْعُهُودِ
فَاسْتَبَاحَ الْحَمْرَاءَ لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ غَيْرَ عَانَ فِي قَيْدِهِ مَصْفُودِ
قَدْ قَتَلْنَا مِنْكُمْ أَلُوفًا فَمَا يَعْدِلُ قَتْلَ الْكَرِيمِ قَتْلَ الْعَبِيدِ

وكان للمولدين شاعرهم المحامي عنهم وهو عبد الرحمان بن أحمد ويعرف بالعيلي نسبة إلى قرية عيلة. فمن شعره منوها بانتصارات المولدين ومحقرا للعرب قوله (وافر)(7) :

قَدْ انْقَصَفَتْ قَنَائُهُمْ وَذَلُّوا(8) وَزُعْزَعُ رُكْنٍ عَزَّيْهِمِ الْأَذَلُ
وَمَا طَلْتُ بِمَاؤُهُمْ لَدَيْهِمْ وَهَاهُمْ عُنْدَنَا فِي الْبَيْتِ طُلُ

فكان هذا البيت الثاني سبب مقتله على يد سعيد بن جودي. وقد ردّ عليه من شعراء العرب محمد بن سعيد بن مخارق ويعرف بالشاعر الأسدي (أسد بني خزيمة)(9) :

قَدْ احْتَمَلَ الْأَحْبَةُ وَاسْتَقَلُّوا لَطِيَّتَهُمْ بَلِيلٌ وَاحْزَأَلُوا
فَضَّلَ الدَّمْعُ مِنْ جَرَعٍ عَلَيْهِمِ إِذَا احْتَمَلُوا يَسِيحُ وَيَسْتَهْلُ
سَاصِرُفُ هَمَّتِي عَنْهُمْ وَأَسْلُو بِهِجُوي مَعْشَرًا كَفَرُوا وَضَلُّوا

كما رد عليه سعيد بن جودي مناقضا له ومادحا لسوار (وافر)(10) :

لِسَوَّارٍ عَلَى الْأَعْدَاءِ سَبَقُ أَبَادَ ذَوِي الْعَدَاوَةِ فَاضْمَحَلُّوا
سَقَاهُمْ كَأْسَ حَتْفٍ بَعْدَ كَأْسِ بِهَا نَهَلَ الْعَبِيدُ مَعَا وَغَلُّوا
وَقَدْ رَفِعَتْ لِسَوَّارٍ قِنَاءُ بِهَا خَضَعَتْ رِقَابُهُمْ وَذَلُّوا
قَتَلْتُ بِوَاحِدِ سَوَّارٍ أَلْفَا وَأَلْفُهُمْ بِوَجْدِنَا يَقُولُ
فَأَكْثَرُ قَتَلْنَا لَهُمْ خِلَالَ بِمَا ارْتَكَبُوهُ ظُلْمًا وَاسْتَحَلُّوا
وَرَثْنَا الْمَجْدَ عَنْ آبَاءِ صِدْقٍ وَإِرْثُكُمْ بَنِي الْعَبْدَانِ ذُلُ
وَأَخْضَعْنَا رِقَابَكُمْ فَذَلَّلْتُ فَلَيْسَتْ مَا حَيِيَّتُمْ تَسْتَقِيلُ

وقد شارك ابن عبد ربه في هذا الخصام بمدحه للأمير عبد الله عندما غزا ابن حفصون في إحدى المرات وانتصر عليه قال (طويل) (11) :

وَرَامَ ابْنُ حَفْصُونَ النَّجَاةَ فَلَمْ يَسِرْ وَالسَّيْفُ طَالِبُهُ فَلَيْسَ بِنَاجٍ
مَا زَالَ يُلْقِحُ كُلَّ حَرْبٍ حَائِلٍ وَالآنَ أَتَتْجَهَا بِشَرِّ نِجَاجٍ
رَكِبُوا الْفِرَارَ بِعُصْبَةٍ قَدْ جَرَّبُوا غِبَّ السُّرَى وَخَوَافِ الْإِذْلَاجِ
وَإِذَا سَأَلْتَهُمْ مَوَالِي مَنْ هُمْ ؟ قَالُوا : مَوَالِي كُلِّ لَيْلٍ دَاجٍ

وقد يقوم الشاعر في خضم هذا الصراع بتقديم النصيحة للحزب الذي يمثله. فهذا الشاعر محمد بن سعيد بن مخارق الأسدي ينصح الحزب العربي بالتوحد لمواجهة الخطر المولّي : (بسيط) (12)

يَا أَيُّهَا الْعَرَبُ النَّائِي مَحَلَّتُهُمْ أَنْتُمْ نِيَامَ وَمَنْ يَشْنَأُكُمْ سَهَرُ
مَا عَيْشُ عَدْنَانٍ ثُونِ الْحَيِّ مِنْ يَمَنِ أَوْ عَيْشُ ذِي يَمَنِ قَدْ خَانَهَا مُضَرُ
إِنَّ السَّهَامَ إِذَا مَا فُرِّقَتْ كُسِرَتْ وَإِنْ تَجَمَّعْنَ تَبْقَى لَيْسَ تَنْكَسِرُ
أَنْتُمْ قَلِيلٌ، كَثِيرٌ فِي عِنَايَتِكُمْ وَغَيْرُكُمْ قَلِيلٌ فِيكُمْ وَإِنْ كَثُرُوا
لَيْسَ مِنْكُمْ نَبِيٌّ اللَّهُ أَكْرَمَ مَنْ يَرَى إِلَاهَهُ وَمَنْ جَاءَتْ بِهِ السُّورُ

(2) الصراع بين العرب والصقالبة : يبدو أقل حدة من المظهر الأول وأخفت ظهوراً. ويمكن أن تدرج النصوص التي جاء فيها هذا المظهر الثاني للشعوبية ضمن الأدب الرمزي، من خلال قطع شعرية وضعها أصحابها على لسان الأزار، وتخیلوا جدلاً بينها في المفاضلة. وعادة ما ينتهي هذا الجدل باتفاق الجميع على تفوق نوع منها فتتم مبايعته. ولنا من ذلك نموذجان :

أ - الأول : يتمثل في رسالة لأحمد بن برد الأصغر (3) تصور فيها اجتماع نواوير خمسة هي النرجس الأصفر والبنفسج والبهار والخيري النمام. والقائم عليها (لم يذكر اسمه). وقد قام هذا القائم في الجمع خطيباً منوهاً بحكمة الله في خلق عبادته درجات، ثم أقر واعتترف بالذنب الذي وقعت فيه النواوير عندما أخذها العجب بنفسها كل مأخذ، فادعت لنفسها (الفضل بأسره والكمال بأجمعه، ولم تعلم أن بها من له مزية عليها ومن هو أولى بالرياسة منها ومن يجب له عليها التخرج ومد يد المبايعه... فهو الأكرم حسب الأشراف زمنا والأتم خصالاً... والطيب إليه كله محتاج، وهو عن جميعه مستغن، وهو أحمر والحمرة لون الدم، والدم صديق الروح وصيغة الحياة) (14). وتقر النواوير بسرعة بذنبها وتبادر بتلافي خطئها، فتتفق على إيثار صاحب الحق وهو الورد وتفضيله والدعاء له وبذل ذات النفس في سبيله. وتتولى هذه

النواوير الحاضرة تدبّيج رسالة إلى الغائب من جنسها ليدخل الجميع في هذه البيعة المباركة.
وتختتم الرسالة بشهادة من حضر. قال النرجس شاهدا :

(رمل)(15)

شَهِدَ النَّرْجَسُ وَاللَّهُ يَرَى صُحَّةَ النَّيَاتِ مِنْهَا وَالْمَرَضُ
أَنَّ لِلْوَرْدِ عَلَيْهِ بَيْعَةٌ أَكَدْتُ عَقْدًا فَمَا أَنْ تَنْتَقِضَ

(مجزوء الكامل)(16)

شَهِدَ الْبُتْفَسَجُ أَنَّهُ لِلْوَرْدِ عَبْدٌ تَمْلُكُ
يَسْعَى بِقَلْبٍ نَاصِحٍ فِي حُبِّهِ مُسْتَهِلِكُ

(كامل)(17)

شَهِدَ الْبَهَارُ وَدُو الْجَلَالَةِ عَالِمُ بِصَحِيحِ مَا يُبْدِي وَمَا يُخْفِيهِ
أَنَّ الْإِمَارَةَ فِي الْأَزَاهِرِ كُلِّهَا لِلْوَرْدِ لَا يُؤْتَى لَهُ بِشَيْبِهِ

(رمل)(18)

وقال الخيري النمام :
شَهِدَ الْخَيْرِيُّ بَرًّا صَادِقًا قَوْلَةَ أَبْعَدَ عَنْهَا الدَّرْكُ
أَنَّ أَزْهَارَ الثَّرَى أَجْمَعَهَا أَعْبُدُ وَالْوَرْدُ فِيهَا مَلِكُ

وليس بخاف هدف ابن برد من هذه الرسالة التي بعث بها من بلاط مجاهد العامري بدانية وهو مولى (أي غير عربي) إلى بلاط أبي الوليد بن جهور بقرطبة وهو عربي. فهو يرمي إلى أن صاحبه الأعجمي ينفرد بين الرؤساء (ملوك الطوائف) تفرد الورد بين النوار، وأن هذا التفرد يجب أن يؤخذ بالتسليم الكامل.

وكان ما هو متوقع من رفض بلاط اشبيلية وحكامه من بني عبّاد، وهم ينتمون إلى أعرق البيوتات العربية هذه البيعة. وقام أحد كتابه بالرد على ابن برد فكان النموذج الثاني، ويتمثل في :

2 رسالة كتبها أبو الوليد اسماعيل الحميري صاحب كتاب (البديع في وصف الربيع) وبعث بها إلى المعتضد بن عبّاد حاكم اشبيلية، وقد استهلها بقوله : (كان في اجتماع بعض النواوير واتفاق طائفة من الأزاهير على تقديم الورد عليها وتقضيله بينها وتخيره للخلافة منها ما قد وقعت عليه ونظرت إليه... فأول من رأى ذلك الكتاب وعين الخطاب نواوير فصل الربيع التي هي خيرة الورود في الوطن وصحابته في الزمن. فلما قرأته أكبرت ما فيه وبنت على هدم مبانيه وبعض معانيه، وعرفت الورد بما عليه، فيما نسب إليه من استحقاقه ما لا يستحقه واستتهاله ما لا يستأهله...)(19) وانتهى النقاش بين الأنوار بنقض

بيعة الورد ومبايعة البهار وطلب الصفح والغفران منه وقد وقع التعدي على حقوقه في الرئاسة والخلافة. وهذه شهادة الخيري الأصفر : (رمل)(20)

أَصْفَرُ الْخَيْرِي يَشْهَد
وَيَرَى أَنَّ الْبَهَارَ -
مَلِكٌ يَقْظَانُ يَأْتِي
أَنْ عَقَدَ الْوَرْدَ قَدْ رُدَّ
مُنْتَقَى أَعْلَى وَأَمَجَدُ
وَصُوفُ الثَّوْرِ هُجْدُ

وتتوالى شهادة بقيّة النواوير ونقض بيعتهم للورد ومبايعة البهار نثرا وشعرا(21). وليس بخاف ما في هذه الأبيات وغيرها من دعوة سياسية صريحة لبلاط اشبيلية العربي ضد بلاط دانية الأعجمي. وقد يأخذ مثل هذا التنافس الخفي شكل التنازع الصريح. فهذا مجاهد العامري - وقد استقطب بلاطه الصراع الشعبي بالأندلس في القرن 11/5 - لما فسدت علاقته بصاحب بلنسية المنصور بن أبي عامر الأصغر، ولم يجد من سبيل إلى الاعتداء عليه، كتب إليه رقعة ولم يضمنها غير بيت الخطيئة. (بسيط)(22)

دَعِ الْمَكَارِمَ لَا تَرْحَلْ لِبُغْيَتَيْهَا
وَأَقْعُدْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الْكَاسِي

فأخرجت المنصور وأقامته وأعدته - على حد تعبير صاحب النفح - فأحضر وزيره أبا عامر بن التاكرني فكتب عنه (كامل)(23)

شَتَمَتْ مَوَالِيهَا عَبِيدُ نِزَارٍ
شِيمُ الْعَبِيدِ شَتِيمَةُ الْأَخْرَارِ

وهو بيت يلمح لعبودية مجاهد، فهو مولى لبني عامر، وسخريته بأحد منهم إنما هي نموذج لتطاول العبيد من الموالى على سادتهم العرب.

3) الصراع بين العرب والبربر : لقد بدا الصراع بين العرب والبربر واضحا أثناء الفتنة الكبرى بقرطبة، وحمل بعض المؤرخين من العرب تبعة هذه الفتنة البربر فسماها بالفتنة البربرية رغم أن العنصرين العربي والصقلبي لعبا فيها دورا لا يقل سلبية عن الدور البربري.

ولئن لم يتمكن العنصر البربري من الحلول محلّ العنصر العربي في أعلى هرم السلطة إلا لمدة سنوات معدودات مع الخلفاء من بني حمّود أثناء الفتنة الكبرى، فقد تمكنوا في مرحلة أولى أن يكون لهم نصيب من بلاد الأندلس بعد انهيار الخلافة الأموية بقرطبة فأسسوا بعض الإمارات الطائفية في غرناطة وبطليوس وطليلطة. وتمكنوا في مرحلة ثانية من أن يجعلوا كامل بلاد الأندلس ولاية بربرية تابعة لهم بمراكش زمن الدولة المرابطية القوية.

ولئن استقبل المرابطي أول الأمر في الأندلس باعتباره أخوا منقذا فقد أصبح يعدّ بعد فترة وجيزة غازيا ثقيل الظل. وفي المادة الشعرية تجد تطورا ملحوظا لهذا الشعور، فقد

بدأ بتحامل الأندلسي على المرابطي. من ذلك ما ترويه كتب التاريخ من أن المعتمد بن عباد سأل يوسف ابن تاشفين وقد أنشده الشعراء (أيعلم أمير المسلمين ما قالوه ؟ قال : لا أعلم ولكنهم يطلبون الخبز. ولما انصرف عن المعتمد إلى حضرة ملكه كتب له المعتمد رسالة فيها (بسيط)(24)

بِنْتُمْ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحُنَا شَوْقًا إِلَيْكُمْ وَلَا جَفَّتْ مَاقِينَا
حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَّامُنَا فَعَدَّتْ سُودًا وَكَانَتْ بِكُمْ بَيْضًا لِيَالِينَا

فلما قرئ عليه هذان البيتان قال للقارىء : (يطلب منا جوارى سودا وببيضا. قال : لا يا مولانا ما أراد إلا أن ليله كان بقرب أمير المسلمين. نهارا لأن ليالي السرور بيض، فعاد نهاره ببعده ليلا، لأن أيام الحزن ليال سود. فقال : والله جيد. أكتب له في جوابه : أن دموعنا تجري عليه ورؤوسنا توجعنا من بعده). وتطور هذا التحامل إلى كره وأصبح الكره نفورا، وانقلب النفور إلى ثورة حسب ما تذكره المادة التاريخية.

أما المادة الشعرية فنجد فيها تنديدا وتشنيعا بالمرابطي بعد انخذه أمام العدو النصراني، وشدته في معاملة أهل الأندلس قال اليكبي (25) (كامل)(26).

إِنَّ الْمُرَابِطَ لَا يَكُونُ مُرَابِطًا حَتَّى تَرَاهُ إِذَا تَرَاهُ جَبَانًا
تَجْلُو الرُّعِيَّةَ مِنْ مَخَافَةِ جَوْرِهِ لَجَلَابِهِ إِذْ يَلْتَقِي الْأَفْرَانَا
إِنْ تَظْلُمُونَا نُنْصِفْ لِنُفُوسِنَا يَجْنِي الرِّجَالُ فَنَأْخُذُ النِّسْوَانَا

أما ابن أبي الخصال(27)، فرغم أنه كان يعمل في بلاط المسلمين وينعم بكثير من الامتيازات، فإنه لم يستطع أن يكبح جماح نفسه، ويخفي شعوره الوطني. واغتنم أول فرصة أتاحت له عندما أمره علي بن يوسف بن تاشفين أن يكتب رسالة توبيخ لجند بلنسية إثر تخاذلهم أمام بعض الجيوش النصرانية، فصب جام غضبه على الحامية المرابطية ونال منها فكشف بذلك عن ضغن خفي شاركه فيه جل الأندلسيين، بدليل أن الرسالة كاد أهل الأندلس قاطبة أن يحفظوها. ومما جاء فيها شعرا قوله وقد تجاوز فيه حد الإشارة والتعريض إلى الذم الصريح

(مقارب)(28)

إِلَى مَ (يُرِيْفُكُمْ)(29) النَّاقِدُ وَيُرْدِيكُمْ الْفَارِسُ الْوَاجِدُ(30)
أَلَا هَلْ أَتَاهَا عَلَى نَائِيهَا بِمَا فَضَحَتْ قَوْمَهَا غَامِدُ
تَمَنِّيْتُمْ مَائِنِّي فَفَارِسُ فَرَدُّكُمْ فَارِسُ وَاجِدُ
فَلَيْتَ لَكُمْ بَارِزِبَاطَ الْخُيُولِ ضِيَانًا لَهَا حَالِبُ قَاعِدُ

إن انتقال المرابطي فجأة من بساطة الحياة البدوية إلى نعيم الحضارة الأندلسية أفقده شجاعته. وبانغماسه في أجواء اللذة والمتعة فقد حياه وعفته قال اليكبي (كامل)(31) :

فِي كُلِّ مَنْ رَبَّطَ اللَّثَامَ دَنَاءَةً وَلَوْ أَنَّهُ يَغْلُو عَلَى كَيَوَانِ
مَا الْفَجْرُ عِنْدَهُمْ سِوَى أَنْ يَنْقُلُوا مِنْ بَطْنِ زَابِيَةٍ لَظَهَرَ حِصَانِ
الْمُنْتَمُونَ لِجَمِيرٍ لَكِنَّهُمْ وَضَعُوا الْقُرُونَ مَوَاضِعَ النَّجَانِ
لَا تَطْلُبُنَّ مُرَابِطًا ذَا عِقَّةٍ وَاطْلُبْ شُعَاعَ النَّارِ فِي الْغُدْرَانِ

واللثام الذي كان رمزا للمرابطي في سمو أخلاقه وعلو همته أصبح ستارا له لسوء سلوكه وقبح فعاله(32) قال اليكبي (كامل)(33) :

إِنَّ الْمُرَابِطَ بَاخِلٌ بِنَوَالِهِ لَكِنَّهُ بَعِيَالِهِ يَتَكْرَمُ
الْوَجْهَ مِنْهُ مُخَلِّقٌ بِقَبِيحٍ مَا يَأْتِيهِ فَهُوَ مِنْ أَجْلِهِ يَتَلْتَمُ

وبهذا السلوك المشين والانحراف المقيت تنتفي صفة الانسانية عن هذا المرابطي وأمثاله. قال اليكبي (بسيط)(34) :

رَأَيْتُ آثَمَ فِي نَوْمِي فَقُلْتُ لَهُ أَبَا الْبَرِيَّةِ إِنَّ النَّاسَ قَدْ حَكَمُوا :
أَنَّ الزَّرَاجِينَ(35) رَهْطٌ مِنْكَ قَالَ إِذَنْ حَوَاءَ طَالِقَةٍ إِنْ كَانَ مَا زَعَمُوا(36)

(II) ومن حيث الأحداث يلاحظ القارئ لتاريخ الأندلس أنه عبارة عن سلسلة من المعارك بين الصليبي والهلال طيلة حوالي ثمانية قرون كان التفوق أول الأمر للمسلمين ثم أصبحت المعارك سجالا لتنتهي في نهاية المطاف إلى انتصار ساحق للنصارى.

وبدت علاقة المسلم الأندلسي بالنصراني الإسباني من خلال تركيز المؤرخين على الأحداث الرسمية علاقة حقد وبغض وكراهية. فالمسلم لا يلتقي بالنصراني إلا في ساحة الوعى ولا لغة بينهما إلا لغة السيف ولا رابط بينهما إلا حب الانتقام والأخذ بالثأر.

وهذا لئن كان صحيحا في جملته، فهو لا يقدم لنا الواقع المعيش. فالاختلاف بين الملتين النصرانية والاسلامية، على أرض شبه الجزيرة الايبيرية لم يقض تماما على بعض الفترات التي تسمو فيها النفس الانسانية وتتخلص من أدرانها، لتعانق قيما من الحب والتسامح. وفي هذا المضمار يمكنا الشعر - وهو لغة الوجدان - من أمثلة واضحة على ذلك :

(1) الألم لقتلى النصارى في معركة أقليش : دارت هذه المعركة التي تعرف في المصادر الاسبانية بمعركة الكنتات السبعة سنة 1108/501 بين الجيش المرابطي والجيش النصراني. وانتهت بانتصار ساحق للمسلمين. وقد جاء ذكر هذه المعركة عرضا في ديوان الأعمى

التطيلي بمناسبة مدحه للبطل وهو أحمد بن أبي الربيع ابن عبد الملك. قال الشاعر
(طويل)(37) :

31 - سَلِ الرُّومَ فِي أَقْلِيْشَ يَوْمَ تَجَآيَشُوا أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ الْفَرَائِشَ لِلْأَسَدِ
32 - تَبَارَوْا إِلَى تِلْكَ الْحَنُوفِ فَسَلَهُمْ أَمَا كَانَ عَنْهَا مِنْ مَّحِيصٍ وَلَا بُدْ ؟

فالشاعر بهذا الاستفهام الإنكاري يبدو - رغم شعوره بنشوة الانتصار في كامل القصيد - كأنه يدعو متأسفاً إلى تجنب الحرب وخلق بديل لها في علاقة سكان الجزيرة الأندلسية من مسلمين ونصارى.

ويتدغم هذا الاستنتاج في وصف الشاعر لقتلى النصارى بقوله(38) :

39 - وَحَتَّى تَدُوسَ الْخَيْلُ أَوْجُهُ فِتْنِيَّةٍ كِرَامٍ عَلَيْهَا غَيْرَ شُومٍ وَلَا تُكْدِ

فالشاعر لا يخفي ألمه لهذه الوجوه الكريمة من الشباب النصراني تزيد سنابك الخيل في تشويهاها بعد أن شوحتها طعنات الرماح وضربات السيوف.

(2) الحب لا يعرف الحقد : أما المثال الثاني المجسم لنمو نبذة الحب والتسامح وسط أشواك الحقد والضغينة، فنجد في ديوان عبد الكريم القيسي الأندلسي : وهو شاعر من القرن 15/9 عاش بمدينة بسطة ووقع في الأسر، وحُمل إلى مدينة آبره في أراضي قشتالة. ولنا في هذا الديوان صورة حية لا نجدها في كل كتب التاريخ عن ظروف عيش الأسير المسلم في القرن 15/9 لدى النصارى. وهي ظروف تجعل الأسير يعيش عذابا ماديا ونفسيا متواصلا : فالقيسي وهو الفقيه الامام يكلفه النصارى بأعمال لا تليق بمقامه العلمي والديني قصد الاهانة والتشفي فيقول ضجرا متألما (كامل)(39) :

وَأَحْسَرْتِي بَعْدَ اشْتِغَالِي بِالْعُلُو
أُمْسِي وَأَصْبَحُ خَادِمًا مُتَّصِرًا
إِنْ لَمْ أَكُنْ بِالْحَفَرِ مُشْتَغِلًا أَكُنْ
وَالْكَنْسُ فِي يَوْمِ الْجُلُوسِ صِنَاعَتِي
فَذِيَابُهُمْ أَذْرَانُهَا مَغْسُولَةٌ
مِ وَدَرَسَهَا وَبِلَاوَةِ الْقُرْآنِ
لِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَالْأَوْثَانِ
بِالْهَذْمِ مُشْتَغِلًا مَعَ الْبُنْيَانِ
وَالرَّشُّ يَنْبَعُهُ مَدَى الْأَخْيَانِ
بِيَدِي وَتَوْبِي الدَّهْرُ بِالْأَذْرَانِ

ومع ذلك لا يحقد القيسي على هذا المجتمع بل ينسى عذابه وبهفو قلبه لفئة نصرانية تدعى البيرة تبادلها هي الأخرى - رغم الحواجز - هذا الحب فيقول (طويل)(40) :

فَأَعْجَبَ عُبَادُ الصَّلِيبِ صَبِيَّةٌ
فَبِتْ حَلِيفَ الْهَمِّ مِنْ قَرْطِ حُبِّهَا
وَكَمْ نَعَمْتَنِي مِنْ لَذِيذِ وَصَالِهَا
سَبَّحْنِي بِوَجْهِ مِثْلِ بَذْرِ مُتَّمِّمِ
وَبَاتَتْ بِهِجْرِي فِي فِرَاشِ تَنَعُّمِ
بِمَا لَمْ تَصِلْ نَفْسِي لَهُ بِتَوَهُمِ

فَقَبَلْتُ مِنْهَا الْخَدَّ وَهُوَ مُورَدٌ وَتَنَيْتُ بِالتَّغْرِ الْمَلِيحِ النَّبَسُ
وَمَالَتْ لِفَرْطِ السَّكْرِ وَهِيَ مَرِيضَةٌ كَمِيلِ الصَّبَا صُبْحًا بَعْضُنِ تَنَعُمُ
وَلَوْلَا عَفَافِي وَاتَّقَاءُ عَنَابِهَا تَمَتَّعْتُ مِنْهَا بِالْمَحَلِّ الْمُحَرَّمِ

(3) اللّذين مختلف والوطن واحد : أما النموذج الثالث فيتمثل في تمسك الأندلسيين بالعيش في مدينة طليطلة بعد سقوطها في يد ألفونسو السادس سنة 1085/478 وخضوعهم للحكم النصراني المباشر. لقد برّر الباكون موقفهم هذا جهرا وعلانية في المادة الشعرية : فأموالهم وأرزاقهم ودورهم وضياعهم مانعة لهم من التحوّل عن أرض تعلّقوا بها، ووجدوا مع ملوك النصارى - وخاصة ألفونسو السادس - حماية وأمنا مقابل ما يدفعونه من مغرم كانوا يدفعون مثله وفي بعض الأحيان أكثر منه لأمرائهم وملوكهم من المسلمين. قال شاعر طليطلة (وافر)⁽⁴¹⁾ :

أَنْتَرُكَ دُورَنَا وَتَفَرُّ عَنْهَا وَلَيْسَ لَنَا وَرَاءَ الْبَحْرِ دُورُ؟
وَلَا ثَمَّ الضِّيَاعُ تَرُوقُ حُسْنًا تُبَاكِرُهَا فَيُعْجِبُنَا الْبُكُورُ
يُودِّي مَغْرَمٌ فِي كُلِّ شَهْرٍ وَيُؤْخَذُ كُلُّ صَائِفَةٍ عَشُورُ
فَهُمْ أَحْمَى لِحُوزَتِنَا وَأَوْلَى بِنَا وَهُمْ الْمَوَالِي وَالْعَشِيرُ

وفي البيت الأخير يبدو التسامح واضحا عندما يصف الشاعر المسلم - على لسان من رضي بالبقاء في طليطلة - النصارى بالموالي ويردّفها بالعشير. وصل الأمر ببعض من اندمج مع المحيط النصراني من أهل طليطلة إلى التنصّر. فهذا فقيه طليطلة أبو القاسم الخياط لم يكتف بالبقاء تحت النفوذ النصراني بل تنصّر وبرّر تنصّره بقوله (طويل)⁽⁴²⁾ :

تَلَوْنَ كَالْجِرْيَاءِ جِئْنَ ذَلَوْنَ وَأَبْصَرَ ذُنْيَاهُ بِمِلَّةٍ جُفُونِهِ
وَكُلَّ إِلَى الرَّحْمَانِ يَوْمِي بِوَجْهِهِ وَيَذْكُرُهُ فِي خَيْرِهِ وَيَقِينُهُ
وَلَوْ أَنَّ دِينَنَا كَانَ نَفْيًا لِخَالِقِي لَمَا كُنْتُ يَوْمًا دَاخِلًا فِي فُنُونِهِ

(4) تدخّل الأمير المسلم للإصلاح ذات البين بين أميرين نصرانيين : تعتبر منطقة الثغر الأعلى من المناطق التي كان فيها الاحتكاك بين المسلمين والنصارى كبيرا. وفرضت الحياة بين إمارات هذه المنطقة النصرانية والإسلامية ضربا من التعايش السلمي نلاحظه في بعض القصائد المدحية التي قالها ابن درّاج القسطلّي في مدح أمراء بني هود وبني تجيب حكام سرقسطة عاصمة الثغر الأعلى. فالأمير المنذر بن يحيى (1017/408 - 1023/414). لم يكتف - حسب هذه المادة الشعرية - بخلق توازن بينه وبين هذه الامارات يسمح بتعايش سلمي، بل خلق لديها شعورا بالثقة فيه والاحتكام إليه. ولم يأل هذا الأمير جهدا في إصلاح ذات البين بين الأمراء المسيحيين أنفسهم ووصل به الأمر إلى تنظيم حفل لعقد المصاهرة بين أميرين من أمراء النصارى : ابنُ فردلند ملك قشتالة وابنُ رايمند قومنُ برشلونة على

أُساس أن يزوّج هذا الأخير ابنته إلى ابن الأول، وما عقد هذه المصاهرة والمنذر شاهداها إلا دليل على تقّتهم فيه وبرهان على النية في إحلال السلام والوثام بينهم محلّ القطعية والصدام. قال ابن درّاج (كامل)(43) :

وَجَنَحْتَ لِلسَّلَامِ الَّتِي جَنَحُوا لَهَا وَقَضَاءُ رَبِّكَ فِي الْعِبَادِ خِيَارُ
فَأَتَوْكَ مُسْتَبِقِينَ قَدْ قَرُبَ الْمَدَى مِنْهُمْ إِلَيْكَ وَذُلَّ الْمَضْمَارُ
آيَاتُ نُصْرٍ فِي الْوَرَى بِسُيُوفِهَا أَمِنَ الْهُدَاةُ وَأَمِنَ الْكُفَّارُ

ولقد كانت هذه المصاهرة التي شهدها الرّهبان والأحبار عقدا كفيلا بإلقاء السكينة في النفوس والطمأنينة على القلوب فسكنت الهواجس وانحلت المخاوف(44) :

فَهُنَاكَ أُخْلِصَتِ النُّفُوسُ وَاكْدَتْ عَقْدُ الْعُهُودِ وَشَدَّتِ الْأَنْصَارُ

وهذه السياسة، لم تعجب بعض أهل سرقسطة، فقد رأوا فيها صلحا بين الأعداء يزدادون به اتحادا وقوة، وبالتالي خطرا عليهم. لكن الشاعر يرى أن سياسة القوة والمجابهة قد تخضد من شوكة العدو، أما سياسة السلم والمهادنة فتجعله تابعا للممدوح وصنيعة له. قال ابن درّاج(45) :

عَلَى أَنْ بَعْضَ الْعَفْوِ قَتْلٌ وَمَغْنَمٌ وَمَا رَدَّ رِيحَ الْمُلْكِ فِي الْحَرْبِ حَازِمٌ
فَإِنَّ قَتِيلَ السَّيْفِ لِلذِّبِّ مَطْعَمٌ وَإِنْ قَتِيلَ الْعَفْوِ لِلْمُلْكِ خَادِمٌ
بِعَقْدِ بِنَاءٍ أَنْتَ شَدَّتْ بِنَاءَهُ وَلَيْسَ لَهُ فِي الْأَرْضِ غَيْرَكَ هَايِمٌ
فَرَنْجَةُ أَعْلَاهُ وَقَشْتِيلُ أَسْفَهُ(46)

5) الجنوح إلى السلم رغم التفوق العسكري : ومن أمثلة التسامح في تاريخ الأندلس في عهد المرابطين ما قام به أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين من حصار لطليطلة سنة 1109/503 بعد أن حقق الهدف من حملته وهو إظهار عزّ الاسلام وقوّته أمام النصراني. ولئن رأى بعضهم في هذا التراجع عن الحصار عجزا عن النيل من المدينة الحصينة، فقد رأت فيه المادة الشعرية مظهرا من مظاهر نبيل الفروسية العربية وشهامتها ونموذج من الدين الاسلامي في سماحته ومثله العليا. وليس هذا الموقف من الممدوح فريدا من نوعه، فقد كان له نظائر في تاريخ الاسلام كتراجع الرسول عن الطائف، وكان قادرا على فتحها، وتراجعه عن مكّة وعقده صلح الحديبية حبّا في السلم وحققا للدماء. فإذا كان الرسول قد فعل هذا فلم لا يقتدي به الممدوح ؟ (وفر)(47) :

51 - لِأَمْرِ مَا رَدَدْتَ الْخَيْلَ عَنْهُمْ وَقَدْ جَعَلْتَ مَحَايِنُهُمْ تَحِينُ
52 - وَأَسْوَأَكَ الرُّسُولُ وَإِنْ يَشْكُوا فَعِنْدَ جَهَنَّمَ الْخَبَرُ الْيَقِينُ
53 - ثَنَاهَا عَنْ ثَقِيفٍ وَالْعَوَالِي بِهِمْ لَجَبٌ وَدُونُهُمْ رَبِيبُنُ

54 - فَوَافَاهُ بِهِمْ ظَمًا وَخَوْفَ وَمِقْدَارَ أَتَى بِهِمْ وَجِينُ
55 - وَهَانَنَ أَهْلَ مَكَّةَ عَنْ دِمَاهَا وَقَدْ تَكْفِي عَنِ الْحَرْبِ الْهُدُونُ

(III) ومن حيث التدقيق في بعض الأحداث، واعتمادا دائما على المادة الشعرية يمكن أن نورد الأمثلة التالية :

1) سقوط غرناطة 1492/897 :

لقد جاء في جل المصادر والمراجع أن سقوط غرناطة كان بالدرجة الأولى نتيجة لتخاذل أهلها وحكامها أمام الجيش النصراني المعاصر.

ويكفي أن نتمعن في بعض القصائد الشعرية التي وصلتنا حتى ندرك أن الحقيقة قد تكون أعمق من ذلك بكثير.

إن النصارى لم يصلوا إلى محاصرة غرناطة إلا بعد أن اقتحموا كل المدن والقلاع والحصون في مملكة بني الأحمر، وأصبحت هذه المدينة المحاصرة تضم نخبة الفروسية الأندلسية ممن صمموا على الدفاع عن المدينة والأخذ بثأر من أزهقت أرواحهم ومن انتهكت أعراضهم ومن سلبت أموالهم وأرزاقهم. وكانوا يرون أن الموت أفضل بكثير من الاستسلام للعدو والخضوع لشروطه وإرادته.

وكان لهذه الخلاصة النقية من الجند الغرناطي جولات مع جيش فرديناند. فقد كانوا يخرجون من المدينة المحاصرة ويشتبكون مع العدو يثخنون في محلاته، مقدمين بذلك ضروبا رائعة من البطولة والاقدام، نوهت بها المصادر النصرانية نفسها، وأشارت إليها المادة الشعرية. قال أبو عبد الله العقيلي (بسيط)(48) :

فَكَمْ مَوَاقِفَ صِدْقٍ فِي الْجِهَادِ لَنَا وَالْخَيْلُ عَالِكَةُ الْأَشْدَاقِ لِلْجُمِ
وَالسَيْفُ يَخْضُبُ بِالْمُحْمَرِّ مِنْ عَلَقٍ مَا ابْيَضَ مِنْ سُبُلٍ وَأَسْوَدَ مِنْ لِمَمِ

كما تشير المادة الشعرية بكل وضوح إلى أن الجيش النصراني - وكانت تدعمه قوات متطوعة من كامل أوروبا - استعمل في دكه لأسوار مدينة غرناطة آلات تشبه المدافع لم يكن للمسلمين ما يشبهها. وهذا يؤكد أن سقوط المدينة يرجع إلى انخراط ميزان القوى بين المحاصر والمحاصرين. قال أبو العباس الذقون متحدثا عن هذه الآلات (بسيط)(49) :

يَسْبِي الْمَسَامِعَ بِالْأَنْفَاطِ مُشْبِهَةً وَقَعَ الصَّوَاعِقُ فِي هَذَا وَزِلْزَالِ

وقال الشاعر الموريسكي واصفا هذه الصواعق (طويل)(50) :

وَجَآؤُوا بِأَنْفَاطِ عِظَامٍ كَثِيرَةٍ تُهَدِّمُ أَسْوَارَ الْبِلَادِ الْمَنِيَعَةِ

لم تهمل المادة الشعرية الإشارة إلى جوانب سلبية في المجتمع الغرناطي أدت إلى سقوط المدينة. فقد لَمَحَتْ إلى ما كان يدور داخل غرناطة من صراع بين الأسر الكبرى ذات الحَلِّ والعقد، ملأ قلوب المتناحرين فيما بينهم حقدا وضغينة، وأضعف ما كان في نفوس ذوي النوايا الحسنة من همة وعزم. قال أبو العباس الدقون (بسيط) (51) :

وَالْمُسْلِمُونَ مِنَ الْأَضْغَانِ قَدْ مُلِئَتْ قُلُوبُهُمْ وَأَبَوْا تَسْدِيدَ أَخْلَالِ
وَالْحَقُّ مُخْتَلِفٌ وَالْحُمُقُ مُؤْتَلِفٌ وَالْكُلُّ مُنْصَرِفٌ عَنْ نَصْرِ أَبْطَالِ

وأكدت المادة الشعرية على عاملين أساسيين في سقوط المدينة :

(أ) عامل نفسي : وهو الخوف من دخول العدو المدينة عنوة، فكان الاختيار لأخف الضررين. وأشد ما كان يخيف أهل غرناطة هو مصير المستضعفين منهم كالأطفال والنساء لو لم تسلم المدينة صلحا. قال الشاعر الموريسكي على لسان أهل غرناطة إلى با يزيد السلطان التركي (طويل) (52) :

وَخَوْفًا عَلَى أَبْنَائِنَا وَبَنَاتِنَا مِنْ أَنْ يُؤَسَّرُوا أَوْ يُقَتَّلُوا شَرٌّ قَتْلُهُ

(ب) عامل اقتصادي : وهو انعدام الأقوات، خاصة عندما دخل فصل الشتاء وانقطع أو كاد الطريق الوحيد الممّون للمدينة، هو طريق البشرات ناحية جبل شلير بسبب تساقط الثلوج. قال الشاعر الموريسكي (53) :

فَلَمَّا تَفَانَتْ خَيْلُنَا وَرَجَالُنَا وَلَمْ نَرَ مِنْ إِخْوَانِنَا مِنْ إِعَائَةِ
وَقَلَّتْ لَنَا الْأَقْوَاتُ وَاشْتَدَّ حَالُنَا أَطْعَمْنَاهُمْ بِالْكَرْهِ خَوْفَ الْفَضِيحَةِ

2 - مأساة الموريسكيين بعد سقوط غرناطة :

لقد بدأ الاهتمام بهذه الأقلية المسلمة التي عاشت وسط مجتمع لا يكن لها إلا الحقد والبغض حديثا. وبدأ الباحثون يكتشفون تفاصيل رهيبة عن مأساة هؤلاء الموريسكيين من خلال مصدرين أساسيين :

(1) المصدر الأول : هو ما نكتشفه من حين لآخر في المخطوطات العربية الأندلسية من منظوم ومنثور يتعلق بحياة الموريسكيين، وهو تراث كتب بلغة عربية بدأت عليها علامات الضعف والانحلال واضحة.

(2) المصدر الثاني : الأدب الألخميادو : وهو أدب - بالمفهوم العام لكلمة أدب - كتبه الموريسكيون سرا بعد أن فقدوا نهائيا القدرة على الكتابة باللغة العربية، فجاء أدبهم في لغة قشتالية بحروف عربية، وقد بدأت الدراسات في جامعات أوروبية وأمريكية تهتم بهذا الأدب. وما زال العرب إلى اليوم لم يحركوا ساكنا في هذا الاتجاه.

ومن النوع الأول عثرنا على قصيدة موريسكية مهلهلة من حيث الصيغة الفنية، ولكنها هامة من الناحية التاريخية موجّهة إلى السلطان بايزيد التركي (ت 1512/918) موضوعها استصراخ هذا السلطان لنجدة المسلمين الموريسكيين المنصرين قهرا وجبرا.

وأهمية هذه القصيدة من الناحية التاريخية، تبدو في طرحها لقضية الأقليات التي تعيش في مجتمع يختلف عنها لغة ودينا وحضارة. فهؤلاء الموريسكيون من خلال هذه القصيدة طالبوا أن يعاملوا بمثل ما يعامل به النصارى في أرض الاسلام. جاء في القصيدة والخطاب موجه لبايزيد(54) :

- 76 - فَسَلْ بِأَبْهَمَ أَعْنِي الْمُقِيمَ بِرُومَةَ
77 - وَمَا لَهُمْ مَالُوا عَلَيْنَا بَعْدَهِمْ
78 - وَجَنَسُهُمُ الْمَغْلُوبُ فِي حِفْظِ دِينِنَا
79 - وَلَمْ يُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ وَبَيَارِهِمْ
لِمَاذَا أَجَارُوا الْغَدَرَ بَعْدَ الْأَمَانَةِ
بَغَيْرِ أَدَى مِنْأُ وَغَيْرِ جَرِيمَةٍ
وَأَمِنْ مُلُوكِ ذِي وَقَاءٍ أَجَلَةٍ
وَلَا نَالَهُمْ غَدْرٌ وَلَا هُنَاكَ خُرْمَةٌ

من خلال هذه الأبيات نتأكد أن الباب هو الذي كان يدير خيوط اللعبة ضد الموريسكيين. ولهذا طلبت القصيدة من السلطان مخاطبة البابا مباشرة لما له من تأثير في أصحاب السلطة باسبانيا.

والقصيدة بصفة عامة تقدّم لنا أمثلة دقيقة ومفصلة عن المعاملة القاسية التي تعرّض لها الموريسكيون، قد لا نجدها بمثل هذا التفصيل في كتب التاريخ. فقد كان النصارى يفسدون عليهم صومهم، جاء في القصيدة(54) :

- 48 - وَفِي رَمَضَانَ يُفْسِدُونَ صِيَامَنَا
بِأَكْلِ وَشُرْبِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ

ويرغمونهم على ترك موتاهم دون دفن إذا لم يحضر رجل الدين المسيحي ليعاين أنه مات على دين النصارى(55) :

- 52 - وَمَنْ جَاءَهُ الْمَوْتُ وَلَمْ يَحْضُرِ الَّذِي
يُذَكِّرُهُمْ لَمْ يَذْفُوهُ بِحِيلَةٍ
53 - وَيُنْزَكُ فِي زِبِلٍ طَرِيحًا مُجَدَّلًا
كَمِثْلِ حِمَارٍ مَيِّتٍ أَوْ بِهَيْمَةٍ

ويحرقون الكتب وخاصة المصاحف(55) :

- 43 - وَكُلُّ كِتَابٍ كَانَ فِي أَمْرِ دِينِنَا
وَأُحْرِقَ مَا كَانَتْ لَنَا مِنْ مَصَاحِفٍ
42 - وَخَلَطَهَا بِالزَّبِيلِ أَوْ بِالنَّجَاسَةِ
فَفِي النَّارِ أَلْقَوْهُ بِهِزْءٍ وَخَفَرَةٍ

وأهل من ذلك على المسلم أن يجبر على عدم ذكر الرسول بل على سبه أحيانا :

- 49 - وَقَدْ أَمَرُونَا أَنْ نُسَبَّ نَبِيُّنَا
وَلَا نَذْكُرْنُهُ فِي رَحَاءٍ وَشِدَةٍ

وتنفرد القصيدة - دون سائر المصادر العربية - بذكر خبر وصول وفد مصري ليتعرف على حالة الموريثيين عن كثب وليخبر السلطات الاسبانية أن السلطان المملوكي قد يضطر إلى معاملة رعاياه النصرى بمثل ما يعامل به الموريثيون في مملكة اسبانيا. وقد أكدت المصادر الأجنبية - وخاصة لويس مارمول - على وصول هذا الوفد سنة 1500/915.

ومن الطريف في هذه القصيدة أن بعض الموريثيين أجبروا على التظاهر أمام هذا الوفد بحسن معاملة النصرى لهم وبأنهم تنصروا اختيارا حتى لا يتعرضوا إلى الهلاك بعد رحيل الوفد. جاء في القصيدة(55) :

- 84 - وَقَدْ بَلَغَتْ أَرْسَالُ مِصْرَ إِلَيْهِمْ وَمَا نَالَهَا غَدْرٌ وَلَا هَتْكَ حُرْمَةٍ
85 - وَقَالُوا لِتِلْكَ الرُّسُلِ عَنَّا بِأَنَّا رَضِينَا بِدِينِ الْكُفْرِ مِنْ غَيْرِ قَهْرٍ
86 - وَسَاقُوا عُقُودَ الرُّورِ مِنْ أَطَاعِهِمْ وَوَالَّهِ مَا نَرْضَى بِتِلْكَ الشَّهَادَةِ

لقد كانت هذه الأمة المقهورة عسكريا تأمل - بعد ضبط بنود استسلام غرناطة - في حياة تنعم فيها بالأمن والطمأنينة تحت النفوذ النصراني، ويلوح هذا الأمل قويا في نفوسهم، بادىء ذي بدء، لأنهم كانوا يعتقدون أن روح التسامح الديني هي التي ستسود في نهاية الأمر بين الفئتين النصرانية والاسلامية. ولهم من الماضي في تاريخ الاندلس أمثلة عديدة على ذلك، ولهم من الحاضر كذلك نماذج في مصر وفي ولايات عديدة من الامبراطورية العثمانية في شرقي أوروبا. فقد كان النصرى في هذه البلدان ينعمون نسبيا بحرية دينية.

ولهذا السبب كان الشعور بخيبة الأمل قويا في نفوس الموريثيين بعد أن تنكر ملوك اسبانيا لعهودهم، ونقضوا بنود اتفاقية الاستسلام ويلوح هذا الشعور بالمرارة في الأبيات التالية(56) :

- 56 - فَأَها عَلَى تَبْدِيلِ دِينِ مُحَمَّدٍ بِدِينِ كِلَابِ الرُّومِ شَرُّ الْبَرِيَّةِ
57 - وَأَها عَلَى أَسْمَائِنَا حِينَ بُدِّلَتْ بِأَسْمَاءِ أَعْلَاجٍ مِنْ أَهْلِ الْغَبَاوَةِ
58 - وَأَها عَلَى أَبْنَائِنَا وَبَنَاتِنَا يَرْوَحُونَ لِلْبَاطِلِ فِي كُلِّ غُدْوَةٍ
59 - وَأَها عَلَى تِلْكَ الْمَسَاجِدِ سُورَتْ مَزَابِلُ لِلْكَفَّارِ بَعْدَ الطَّهَارَةِ
60 - وَأَها عَلَى تِلْكَ الصَّوَامِعِ عُلِّقَتْ نَوَاقِيسُهُمْ فِيهَا نَظِيرَ الشَّهَادَةِ

ولئن نادى الموريثيون بتذكير ملوك اسبانيا بهذه القيم والمبادئ في التعامل الانساني، فليمانهم أول الأمر أن التسامح الموجود في أرض الاسلام يمكن أن يوجد كذلك في أرض النصرى.

IV) ومن حيث الاضافات قد تنفرد المادة الشعرية بذكر أحداث كان من المفروض أن تكون موجودة في المصادر التاريخية، لكن لسبب من الأسباب لم توجد في المادة التاريخية

ووجدت في المادة الشعرية، وبذلك يقوم النصّ الشعري الأندلسي بسدّ ثغرات في تاريخ المسلمين في شبه الجزيرة الإيبيرية. والأمثلة على ذلك متعدّدة تقتصر على ما يلي :

أ - معركة قبيرة (57) :

جرت هذه المعركة أثناء الفتنة الكبرى في بداية القرن 5 هـ/ 11 م بين أهل قرطبة وعلى رأسهم الفتى خيران العامري من جهة والبربر من ناحية ثانية. ودارت فيها الدائرة على الحزب البربري، وكانت انتصارا باهرا للحزب الأندلسي.

ولئن أهمل المؤرخون يوم قبيرة، فقد أشار إليه ابن درّاج ونوّه ببطولة الفتان العامريين بقيادة خيران وصوّر انكسار البربر متشفيا (الطويل)(57) :

بُكِّلَ كَيْمِي عَامِرِي يَسُوقُهُ	لِحَرِّ الْوَعَى قَلْبٌ عَلَى الدِّينِ حَرَانُ
حَفَرَتْ لَهُمْ فِي يَوْمِ قَبْرِهَ بِالْقَنَا	قُبُورًا هَوَاءَ الْجَوِّ مِنْهُمْ مَلَانُ
يَطِيرُ بِهَا هَامٌ وَنِسْرٌ وَنَاعِبٌ	وَيَعْدُو بِهَا ذَيْبٌ وَذَيْحٌ وَسَرَحَانُ

ب - سقوط أنتقيرة ANTEQUERA (58) :

لما انتهت الهدنة بين غرناطة وقشتالة في أواخر العقد الأول من القرن 15/9، بادروا المسلمون بالاستحواذ على بعض الحصون المتاخمة لثغورهم. فجاء ردّ الفعل القشتالي بقيادة فرناندو الوصي على عرش ابن أخيه خوان الثاني. وحاصر أنتقيرة في 21 ذي الحجة 812 هـ/ 26 أبريل 1410 م. وأبدى أهل الحصن استماتة في الدفاع عنه. وحاول يوسف الثالث من جهته إنقاذ الحصن، فاقترح عقد هدنة مع فرناندو، ولكنّ هذا الأخير رفضها، وأشار يوسف الثالث في ديوانه إلى هذا الرفض قائلا (الطويل)(59) :

لَبِئْسَ فَاتٍ فِي أَمْسٍ فَنَاءُ إِفْنَتِهِمْ (60)	سَيَلَقَى غَدًا رُجْزَ الْعَذَابِ أَلِيمًا
وَسُحْقًا لَهُ حَيْثُ اسْتَحَقَّتْ حُلُومُهُ	وَلَمْ يَرْجُ فَيَاضَ الْهَبَاتِ حَلِيمًا
وَلَمْ يَتَّخِذْ لِلصُّلْحِ مِنْهَا وَسِيلَةً	يَرْضَى مَسِيحًا قَصْدَهَا وَكَلِيمًا

واستمرّ فرناندو على حصار الحصن إلى أن سقط صلحا في 25 جمادى الأولى 813 هـ/ 25 سبتمبر 1410 م وخرج منه المسلمون بأموالهم إلى أرشذونة. ومنذ ذلك الحين أصبح فرناندو يعرف بفرناندو صاحب أنتقيرة تجسيما لهذا الانتصار الباهر الذي لم تعرفه قشتالة منذ وقعة طريف (61).

وأغفلت المصادر العربية ذكر هذا الحدث، ولم يرد ذكره إلا في المادة الشعرية من خلال تكميس نظمه يوسف الثالث نفسه يعترف فيه اعتراف البطل الجريء بالهزيمة. وهذا الاعتراف ليس من باب التفجّع، وإنما هو من باب التأسي، فيه إقرار بأن الحرب سجال :

يوم لك ويوم عليك. وفيه إيمان إيجابي بمفهوم القضاء والقدر بما يبعثه في النفس من صبر على ما حلَّ، وعزم على تفادي ما حدث، وجلد على مقارعة ما سينشب قال (الطويل)(62) :

خَلِيلِيْ مَهْلًا فَالزَّمَانُ كَمَا تَنْذِرِي وَلَا بُدَّ مِنْ يُسْرِ عَلَى أَثَرِ الْعُسْرِ
فَمَهْمَا دَهَى صَحَوْ فَلَا بُدَّ مِنْ قَطْرِ وَمَهْمَا نَجَا خَطْبٌ فَلَا بُدَّ مِنْ فَجْرِ
وَالطَّافُ صُنْعُ اللَّهِ رَائِعَةُ الْبَشَرِ
هُوَ الدَّهْرُ دُو الْوَجْهَيْنِ فَعَلْ مُنَافِق وَأَحْكَامُهُ تَجْرِي بِكُرْهِ الْخَلَائِقِ
فَصَبْرًا وَتَسْلِيمًا لِمَا شَاءَ خَالِقِي فَلَا بُدَّ مِنْ ظَفْرِ وَنَصْرِ مُوَافِقِ
عَلَى رَغَمٍ مَنْ يَأْبَى الظُّهُورَ عَلَى الْكُفْرِ
عَلَى الْعَدْلِ يَجْرِي حُكْمُهُ وَقَضَاؤُهُ وَمِمَّا لَهُ التَّسْلِيمُ فِي مَا يَشَاؤُهُ
وَمَنْ كَانَ بِالْحَقِّ الْيَقِينِ اهْتَدَاؤُهُ رَأَى النَّصْرَ خَفَاقًا عَلَيْهِ لَوَاؤُهُ
وَسُخْقًا لِبَاغٍ حَادَ عَنْ عِلْمِ النَّصْرِ
سَتَنَخِرُمُ الْأَعْمَارُ مِنْ فِتْنَةِ الْعَدَى وَنَاصِرٌ بَيْنَ اللَّهِ يَبْقَى مُؤَيَّدَا
فَاسْتَفْتَحِ الْأَمْصَارَ مُلْكًا مُؤَيَّدَا تَلُوحُ مَعَالِينَا عَلَى أَفْقِ الْهُدَى
كَمَا لَاحَ فِي أَسْنَى مَطَالِعِهِ الْفَجْرُ

ج - معركة لورقة(63) :

وقعت هذه المعركة في عهد سلطان غرناطة محمد العاشر(64). فقد أرسل في صفر 856/مارس 1452 جيشا من متطوعة غمارة بقيادة ابن عبد البر(65)، يتركب من ألفي فارس وست مائة راجل إلى منطقة متقدمة من الثغر بين أريولة ومرسية في شرقي دولة بني الأحمر داخل الأراضي القشتالية في بسيط يعرف ببسيط البورشنيس ALPORCHONES(66). واعتبرت الحملة موفقة من الناحيتين السياسية والعسكرية. لكن أثناء الرجوع اعترض قائد عسكر مرسية بيدرو فخاردو : Pedro Fajardo الجيش الغرناطي وأوقع به هزيمة نكراء أصبح يعرف بعدها بفخاردو الباسل Fajardo el Bravo. وكان ذلك يوم الجمعة 25 صفر 856/17 مارس 1452.

وسكنت المصادر التاريخية العربية عن هذه الهزيمة، وردد صداها القيسي من خلال تخميس له. فيه وتفعج لما حل ببلاد الأندلس من ويل وثبور. وما هذه الهزيمة حسب الشاعر إلا حلقة من سلسلة نكبات ينزلها العدو بها كل يوم بقسوة وشراسة. ولم يبق من أمل في النجاة، والحالة تلك، إلا الأمل في عون الله ونصره. (الكمال)(67) :

لِمَصَابِ أَنْدَلُسِ تَصُوبُ الْأَذْمُعُ وَلِمَا جَرَى فِيهَا تَدُوبُ الْأَضْلُعُ
فَلَهَا مَعَ الْأَعْدَاءِ حَالٌ تُفْزَعُ تَفْضِي بِحَسْرَةٍ مَنْ يَرَى أَوْ يَسْمَعُ
وَتَكَادُ مُهْجَتُهُ لَهُ تَتَصَدَّعُ

جَارَ الزَّمَانُ عَلَى جَمِيعِ جِهَاتِهَا فَأَبَاحَ حُرْمَةَ أَهْلِهَا لِبُعْدَاتِهَا
 أَتَرَى الْإِلَهَ يُقِيلُهَا عَثْرَاتِهَا وَيُزِيلُ مَا هِيَ فِيهِ مِنْ غَمَرَاتِهَا
 بِدُنُو نَصْرِ بِالْفَتْوحِ يَشْفَعُ
 فَلَقَدْ أَحَالَ عَدُوُّهَا أَحْوَالَهَا حِينَ الْخُطُوبِ أَذَاقَهَا أَهْوَالَهَا
 وَأَفَاضَ فِي أَقْطَارِهَا إِذْلَالَهَا لَمَّا أَبَادَ بِلُورَقِهِ أَبْطَالَهَا
 يَوْمَ الْعُرُوبَةِ (68) كَانَ فِيهَا الْمَصْرَعُ

ولا يحمل القيسي تبعة هذه الهزيمة على الجيش الغازي، بل بالعكس كان يرى في من سقط منهم في ميدان المعركة، أو من أسر بيد العدو شهداء أبطالا جديرين بكل رثاء وتنويه :

ذَهَبَ الْجَمِيعُ مُجَاهِدِينَ كَمَا ابْتَعَوْا وَحَوَّوْا هُنَاكَ مِنَ الشَّهَادَةِ مَا حَوَّوْا
 مَاذَا نَكَّوْا أَعْدَاءَهُمْ مَاذَا نَكَّوْا وَلَرُبَّمَا مِنْهُمْ أَسَارَى مَا افْتَدَوْا
 كَمْ أَمْرَضُوا مِنْ خَاطِرٍ كَمْ أَوْجَعُوا

وليس هذا الهلع في تخميس الشاعر من باب المبالغة الشعرية. فقد أوردت المصادر التاريخية النصرانية أن ابن عبد البر رجع ومعه فقط ثلاثمائة من جنده (69). فيكون بذلك قد سقط من المسلمين ألفان وثلاثمائة ما بين قتل وأسير. وجاء « في مدونة جوان XI أنه استشهد في هذه الكائنة 14 قائدا وعددت منهم تسعة، وهم ابن عزيز قائد بسطة، وأخوه أبو القاسم قائد المحلة غرناطة، والعباس بن علي بن حميد قائد ببرة، وقواد بلش البيضاء، وبلش الشقراء والمرية وأرك وشوهر وقولر » (70). ولقد استعظم ابن الأحمر الخسارة ورأى في سلوك ابن عبد البر تقاعسا وجبنا فأمر بقطع رأسه حسب الرواية النصرانية (71).

وتبقى للمادة الشعرية قيمة أخرى نعتبرها على غاية كبيرة من الأهمية. ذلك أنها قد تمكننا من رواية ثانية قد تخالف - قليلا أو كثيرا - الرواية التاريخية. هذا إن لم تكن عكسها تماما. ذلك أن الناظر في بعض القصائد أو المقطوعات أو النثف - وحتى البيت الوحيد - المنشورة هنا وهناك في كتب الأدب والتراجم قد يجد نفسه مضطرا إلى إعادة النظر في بعض ما جاء من روايات تاريخية. فالمادة الشعرية تلفت انتباهنا إلى أشياء جديدة لم تكن تخطر على بال. لا لشيء سوى أن المادة التاريخية قد حسمت الأمر فيها في اتجاه معين. ولنا أمثلة على ذلك :

أ - غزوة سردانية : لقد اتفقت جل المصادر التاريخية، إن لم نقل كلها، على تمجيد حملة مجاهد العامري على سردانية. والواقع أن هذه الحملة كانت فشلا عسكريا ذريعا ذهبت فيها العديد من المسلمين بين قتل وأسير. وبالا اعتماد على بيت شعري وحيد نفهم أن تباينا في وجهات النظر بين رئيس البحريين ومجاهد كان سببا أساسيا لهذه النهاية المأسوية.

فقد أنشد أبو خروب رئيس البحرنيين عندما كانت سفن الأسطول تسقط بيد النصاري منددا بمجاهد وكان يبكي لهول الموقف (طويل)(72) :

بَكَى دَوْبِلٌ (73) لَا أَرْقَأُ اللَّهَ عَيْنُهُ أَلَا إِنَّمَا يَبْكِي مِنَ الدُّلِّ دَوْبِلٌ

ب) بيعه شنجول بولاية العهد : كما نوّهت جل المصادر التاريخية بإسناد ولاية عهد هشام المؤيد إلى عبد الرحمان شنجول العامري. ودُبِجت القصائد لهذا الغرض لإضفاء مزيد من الشرعية على هذه البيعة، فقال صاعد البغدادي (طويل)(74) :

أَمَّا وَالَّذِي أُعْطِيَ الْخِلَافَةَ رَبَّهَا أَغْرَ مُعِماً فِي التَّبَايِعِ مُخَوِلاً
لَقَدْ حَارَهَا مُرْخٌ عَلَيْهَا جَنَاحُهُ عَقَابٌ إِذَا مَا أَعْلَقَ الصَّيْدُ جَلْجَلاً
وقال أبو منصور زيادة الله الضبي (بسيط)(75) :

تَخَيَّرَ اللَّهُ وَالسُّلْطَانُ لِلْأَمَمِ وَلِيَّ عَهْدٍ بَرَاهُ اللَّهُ مِنْ كَرَمِ

والحقيقة أن هناك معارضة قويّة لهذه البيعة المشؤومة وقع تهميشها، ولكن المادّة الشعرية أبرزتها بشكل واضح جليّ. قال ابن أبي يزيد المصري (مجزوء البسيط)(76) :

إِنَّ ابْنَ ذَكْوَانَ وَابْنَ بُرْدٍ (77) قَدْ نَاقَضَا الدِّينَ بَعْدَ عَهْدِ
وَعَائِذَا الْحَقِّ إِذْ أَقَامَا حَفِيدَ شَنْجَةِ (78) وَلِيَّ عَهْدِ

ج) مقتل ابن الخطيب : وما من شك أن قراءة بعض القصائد قالها ابن الخطيب في التشفي من خصومه بعد مصرعهم بطريقة شنيعة جداً، يمكن أن تخفف نسبياً الحكم القاسي الذي نجده في كتب التاريخ على من تسبّبوا في مقتله وهو سجين، فنفس شاعر غرناطة القدير ووزيرها الخطير لم تكن لتخلو من عقد ومركبات كانت من بين الأسباب التي أدت إلى نهايته المأسوية، فقد قال بعد مقتل السلطان إسماعيل وأخيه قيس متشفياً (وافر)(79) :

بِإِسْمَاعِيلَ ثُمَّ بِأَخِيهِ قَيْسٍ تَأَذَّنَ لَيْلٌ هَمِّي بِإِنْبِلَاجِ
دُمُ الْأَخْوَيْنِ دَاوَى جُرْحَ قَلْبِي وَعَالَجَنِي وَحَسْبُكَ مِنْ عِلَاجِي (80)

د) حذبة المنصورين أبي عامر : وفي هذا الاتجاه ألا يمكن أن نفرّس قسوة المنصور على بعض أفراد عائلته وصلابته في تعامله مع الرعيّة وشدّته على النصاري في حملاته العسكرية بمركّب نقص خلقي لا نجده في المصادر التاريخية وأبرزه أحد الشعراء الناقصين عليه وهو إبراهيم بن إدريس قائلاً (كامل)(81) :

أَيَكُونُ حَيًّا مِنْ أُمِيَّةٍ وَاجِدٌ وَيَسُوسُ ضَخَمَ الْمُلْكِ هَذَا الْأَخَذَبُ
تَمْشِي عَسَاكِرُهُمْ حَوَالِي هَوْدَجٍ أَعْوَادُهُ فِيهِنَّ قِرْدٌ أَشْهَبُ
غَابَتْ أَسْوَدٌ مِنْكُمْ عَنْ غَابِهَا فَلِذَلِكَ حَارَ الْمُلْكَ هَذَا التُّغْلَبُ

إن هذا المثال الأخير بقدر ما يفتح المجال لمقارنات وتأويلات، يُحمّل المعتمد على الشعر للتأريخ مسؤولية كبيرة. فالانسحاق وراء التأويل المفرط قد يؤدي هو الآخر إلى عكس ما نرمي إليه من بلوغ الحقيقة التاريخية.

إن المادة الشعرية سلاح ذو حدين. فهي تمكّننا من الجديد الغريب عندما نستكنه أمرها، لكنّها قابلة لأن توقعنا في أشد الأحكام بعدا عن الحقيقة التاريخية. فالشاعر مهما كانت موضوعيته في رسمه الحدث التاريخية يبقى وصفه ذاتيا بالدرجة الأولى. وتزداد خطورته إذا كان شعره شعرا رسميا متصلا بسلطة معيّنة لها إيديولوجيتها وسياستها. وليس غريبا أن يقلب هذا الشاعر الحقيقة التاريخية رأسا على عقب والأمثلة موجودة في الشعر الأندلسي : فهذا الخليفة الموحّدي يصبح - وخصاله باعتباره رجل دولة محنّك لا يمكن أن تنكر - في شعر ابن الأبار المنحاز إلى دولة بني حفص موسوما بأبشع النعوت والأوصاف خلّقا وخلّقا⁽⁸²⁾. والإتاوة التي كان ملوك الطوائف يقدمونها إلى ألفونسو السادس ضعفا وخنوعا يجد لها الشاعر المدّاح تبريرا يستفز بها كل قارئ بطرائه المملّ ومدحه المزيف⁽⁸³⁾.

وهكذا نرى أن المادة الشعرية رغم ما توفّره لنا من جزئيات وما تقدّمه من تدقيقات وما تسدّه من ثغرات وما تفتحّه أماننا من تأويلات معقولة ومبرّرة تبقى سلاحا يجب أن نعرف كيف نستعمله لسبب بسيط هو أن الشعر العربي بصفة عامة، والشعر الأندلسي جزء منه، هو شعر رسمي وإمكانية الانحياز - عند ذكر الأحداث - إلى هذا الجانب أو ذاك وارد ومتوقّع لا محالة.

الهوامش

- (1) أنظر قائمة دواوين الشعر الأندلسي المطبوعة في مقالنا حول « القيمة الوثائقية في ديوان ابن الأبار » في مجلة دراسات أندلسية عدد 2 جوان 1988، ص 32 وما بعدها.
- (2) آخر ما ظهر : ديوان ابن فركون ق 15/9 تحقيق الأستاذ محمد ابن شريفة طبعة المغرب 1987. وديوان عبد الكريم القيسي تحقيق د. جمعة شيخة، و د. محمد الهادي الطرابلسي، طبعة تونس 1988. ومظهر النور لابن فركون إعداد الأستاذ محمد ابن شريفة ط. المغرب 1991.
- (3) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص 97.
- (4) ابن حيّان : المقتبس، ص 58.
- (5) يقصد العجم والمولدين احتقارا.
- (6) ابن حيّان : المقتبس، ص 59.
- (7) إحسان عباس : تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص 97.
- (8) المقصود العرب.
- (9) ابن حيّان، ص 66.
- (10) المصدر السابق.
- (11) المصدر السابق.
- (12) المصدر السابق.
- (13) أبو حفص بن برد الأصفر صاحب نظم ونثر اتّصل ببلاط المرية أولا ثم استقرّ بدانية في بلاط مجاهد. ذكر الحميدي أنه رآه بالمرية بعد 1048/440 (ابن سعيد : المغرب : 86/1).
- (14) أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميري، (ت حوالي 1048/440) : البدیع في وصف الربيع، تحقيق هنري بريس، الجزائر، 1940، ص 5-54.
- (15) المصدر السابق.
- (16) المصدر السابق.
- (17) المصدر السابق.
- (18) أبو الوليد إسماعيل بن عامر الحميري، (ت حوالي 1048/440) : البدیع في وصف الربيع، تحقيق هنري بريس، الجزائر، 1940، ص 5-54.
- (19) المصدر السابق، ص 9-58.
- (20) المصدر السابق، ص 59.
- (21) المصدر السابق، ص 6-65.
- (22) المقرئ : نفح الطيب، 132/4.
- (23) المقرئ : نفح الطيب، 132/4.
- (24) المقرئ : نفح الطيب، 1/3 - 190.
- (25) أبو بكر يحيى بن سهل : هو حسب ابن سعيد مجاء المغرب ويشبهه بابن الرومي وبالحنينية (ابن سعيد : المغرب : 268/2).
- (26) ابن سعيد : المغرب 268/2.
- (27) أبو عبد الله بن أبي الخصال (1073/465 - 1146/540) شاعر وأديب كتب لعلّي بن يوسف بن تاشفين. واكتفى بإعفائه إثر رسالة التشفي التي كتبها في ذم جند بلنسية من المرابطين. استشهد في فتنة المصامدة بقرطبة (الزركلي : الأعلام 316/7).

- (28) حسين مؤنس : نصوص سياسية نشرها بمجلة المعهد المصري بمدريد، مجلد 3/1955، ص 117.
- (29) أصلح هذا الفصل عبد الله كنون في مقال له حول رسالة ابن أبي الخصال في ذمّ المرابطين بمجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، مجلد 35/1960، ص 576. بينما نجد عند حسين مؤنس في المرجع السابق وبعض المراجع الأخرى (بريكم).
- (30) هذا البيت لم يعتبره عبد الله كنون في بحثه السابق جزءاً من المقطوعة الشعرية وأورده في قالب نثري.
- (31) ابن سعيد : المغرب : 2/267.
- (32) هذا يتفق مع ما قاله ابن عبدون في رسالته حول الحسبة والقضاء بالأندلس (انظر لفي بروفنصال : رسالة ابن عبدون في القضاء والحسبة، ص 28).
- (33) المقرئ : نفح الطيب، 3/205.
- (34) ابن إدريس : زاد المسافر، 120.
- (35) الزراجون : اسم أطلق على المرابطين تشبيهاً لهم بطائر يقال له الزرجان : وهو طائر أسود البطن أبيض الريش لأن المرابطين في نظر أعدائهم بيض الثياب سود القلوب : (عبد الله عنان : دولة الأندلس : عصر المرابطين، ص 185).
- (36) ينسب هذان البيتان للسميسر الشاعر.
- (37) ديوان التطيلي، ص 2-31.
- (38) نفس المصدر.
- (39) ديوان القيسي، ص 198.
- (40) ابن شريفة : البسطي، ص 217.
- (41) نفح الطيب : ج 4، ص 5-484.
- (42) ابن سعيد : المغرب 2/22.
- (43) ديوان ابن درّاج، ص 127.
- (44) المصدر السابق، ص 128.
- (45) ديوان ابن درّاج، ص 134.
- (46) المقصود أن الذكر في هذا العقد من فرنجة أي برشلونة والأنتى من قشتالة.
- (47) ديوان التطيلي، ص 204.
- (48) المقرئ : نفح الطيب، 4/531.
- (49) المقرئ : أزهار الرياض 1/105.
- (50) المصدر السابق.
- (51) المقرئ : النفح : 1/355.
- (52) المقرئ : أزهار الرياض، 1/105.
- (53) المصدر السابق.
- (54) المقرئ : أزهار : 1/105.
- (55) المقرئ : أزهار الرياض : 1/105.
- (56) المقرئ : أزهار : 1/105.
- (57) قبرة : Cabra تقع في الجنوب الشرقي لقرطبة.
- (58) انتقيرة : إحدى مدن الأندلس القديمة، تبعد عن مالقة حوالي 60 كلم. وهي عبارة عن مجموعة من الحصون بين مالقة وغرناطة (ابن الخطيب : معيار الاختيار، ص 127 تعليق 223).
- (59) ديوان يوسف الثالث، ص 122.
- (60) الإفنت : L'Infant Ferdinand حكم قشتالة باعتباره وصياً على ابن أخيه الطفل خوان الثاني.

- (61) وقعت معركة طريف بين ملك قشتالة وحليفة ملك البرتغال وبين أبي الحسن المريني وحليفه ابن الأحمر، وانتهت بهزيمة المسلمين هزيمة نكراء في 7 جمادى الأولى 741/30 أكتوبر 1340 (ابن الخطيب : رقم الحل، ص 93).
- (62) ديوان يوسف الثالث، ص 70-71.
- (63) لورقة Lorca تقع شرقي مملكة بني نصر تابعة لأرض قشتالة، ما بين غرناطة ومرسية، لها حصن من أنعم حصون بلاد الأندلس يقع على ارتفاع 350 م. سقطت لورقة مع مرسية سنة 1266/665 (دائرة المعارف الإسلامية ط 33/3/1 كتب المقال لـ بروفنصال).
- (64) ذكرت ذلك آربي في أطروحتها ص 140. لكن حسب الجدول الذي وضعته في آخر كتابها يجب أن يكون باعث الحملة محمد XI الذي حكم من 1451/855 إلى 1452/856.
- (65) ذكرت آربي في أطروحتها ص 140 أن اسمه عبد البر.
- (66) ولهذا تعرف المعركة في المصادر الإسبانية بواقعة البورشونيس.
- (67) ديوان القيسي، ص 68.
- (68) يوم العروبة : يوم الجمعة. ويكون الشاعر بهذا الضبط قد مكننا من أن نرجح رواية ج. طوريس فوننس في كتابه : دون بينرو ص 3-52، فقد ذكر أن المعركة وقعت يوم 25 صفر/17 مارس وهو يوافق يوم جمعة بخلاف ما ذكرته آربي في أطروحتها ص 140 وهو يوم 15 صفر/7 مارس وهذا يوافق يوم الثلاثاء وإلى اليوم يحتفل أهل مرسية بهذا الانتصار. ويوافق 17 مارس يوم القديس باتريس الذي اعتبر منذ ذلك التاريخ حامي مدينة مرسية.
- (69) شكيب أرسلان : الحل السندسية : 455/3 (اعتمد المؤلف على مصادر إسبانية).
- (70) محمد بن شريفة : البسطي آخر شعراء الأندلس، ص 171.
- (71) شكيب أرسلان : الحل السندسية 455/3.
- (72) الجذوة 358.
- (73) الدُّوَيْلُ : هو الحمار الصغير لا يكبر، أو الذكر من الخنازير.
- (74) أعمال الاعلام : 94.
- (75) أعمال الاعلام : 95.
- (76) الحلة السيرة : 279/1.
- (77) ابن زكوان وابن برد القاضيان اللذان دبجا ولاية العهد لشنجلول.
- (78) يقصد عبد الرحمان، شنجلول.
- (79) ديوان ابن الخطيب : 359.
- (80) وهجا الوزير ابن أبي الفتوح بعد إغراقه في البحر مع أبنائه ونعتهم بالجراء (المقري : النفع : 140/6-141).
- (81) نيكل : مختارات من الشعر الأندلسي، ص 45.
- (82) القيمة الوثائقية في ديوان ابن الأبار : دراسات أندلسية، عدد 2، ص 50.
- (83) جمعة شيخة : الفتن والحروب وأثرها في الشعر الأندلسي : 92/1.